الفصل الأول

الافتتاح بالجملة الخبرية لفظاً ومعنى

المبحث الأول : سورة الأنفال .

المبحث الثانى : سورة التوبة .

المبحث الثالث : سورة النحل .

المبحث الرابع : سورة الأنبياء .

المبحث الخامس : سورة المؤمنون .

المبحث السادس : سورة النور .

المبحث الأول

سورة الأنفال

تروى أسباب عديدة بشأن مطلع هذه السورة أولها ما نسب إلى عبادة ابن الصامت أنه قال : « لما هزم العدو يوم بدر واتبعتهم طائفة يقتلونهم ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ واستولت طائفة على العسكر والنهب ، فلما نفى الله العدو ، ورجع الذين طلبوهم ، وقالوا ، لنا النفل بحسن طلبنا العدو ، وبنا نفاهم وهزمهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم بأحق به منا ، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غرة ، فهو لنا ، وقال الذين استولوا على العسكر والنهب : والله ما أنتم بأحق به منا نحن أخذناه ، واستولينا عليه ، فهو لنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . . .﴾ (الأنفال:١) »[1].

ذلك هو مطلع السورة الكريمة الذي بنوره تتكشف طرائق المباني الدالة على معاني هذه السورة ، المتعانقة في سبيل الوفاء بمقصودها وقد أضاء سبب النزول ، ومناسبة السورة لما قبلها ، وتسميتها سبيل التعرف على مقصودها ، يتلفت ابن الزبير في الكشف عن المناسبة إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ (الأعراف:١٧٦) .

---

(١) أسباب النزول ص ١٧٣ .

فيقول : «فأشار ـ سبحانه ـ إلى أن اتباع الأهواء أصل كل ضلال ، نبهوا على ما فيه من الحزم،من ترك الأهواء جملة،فقال تعالى:﴿يَسْـَٔلُونَكَ. . .﴾ فكأنه قد قيل لهم : اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم ، وفوضوا في أمره الله ورسوله ، ذلك أسلم لكم وأحزم في دفع أغراضكم»[1].

ثم يقول : ناظما ذكر أحوال بني إسرائيل من سورة البقرة إلى هنا ـ «فعلى هذا لما ضمنت سورة الأعراف من قصصهم جملة ، وبين فيها اعتداؤهم وبناؤه على اتباع الأهواء ، والهجوم على الأعراض طلب هؤلاء باتقاء ذلك والبعد عما يشبهه جملة فقيل في آخر السورة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ (الأعراف:٢٠١) ثم افتتحت السورة الأخرى بصرفهم عما لهم به تعلق ، وإليه سبب يقيم عذرهم شرعا فيما كان منهم ، فكأنه قد قيل لهم : ترك هذا أسلم ، وأبعد عن اتباع الهوى ، فسلموا الحكم في ذلك لله ورسوله ، واتقوا الله ثم تناسج السياق»[2].

وسبب النزول يكشف لنا التنازع فيما لهم به تعلق ، اعتقادا بتملكهم أسباب تحصيله وقد جاء السؤال كاشفا عن التنازع ، وجاء الجواب صارفا إلى مقصود السورة ، مرتبا على المقصود أوامر تناسج فيها السياق كما ذكر ابن الزبير ، وكلمته تلك لها خطرها في تفهم جريان هذا النسيج الذي في السورة ، وتبصر طرائقه ، وتبين تلاحمه حتى صار معجزا بذات مبانيه ومطاوي معانية .

وكان ما ذكرناه من سبب النزول ، ومن كشف التناسب بين السورتين هاديا بصيرة البقاعي ـ مع ضميمة اسم السورة ـ إلى بيان مقصود هذه

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ١٠٠ .

(٢) البرهان لابن الزبير ص ١٠٤ .

السورة الأعظم يقول : رحمه الله «ومقصودها : تبرؤ العباد من الحول والقوة ، وحثهم على التسليم لأمر الله واعتقاد أن الأمور ليست إلا بيده ، وأن الإنسان ليس له فعل يثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة ، المثمر لنصر الدين وإذلال المفسدين المنتج لكل خير والجامع لذلك كله أنه كما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله والاجتماع عليه ـ لما ثبت من تفرده واقتداره ـ كان مقصود هذه السورة بإيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضا ، والتبرؤ من كل حول وقوة إلى من أنعم بذلك كله ، ولو شاء سلبه .

وأدل ما فيها على هذا المقصود قصة الأنفال التي اختلفوا في أمرها ، وتنازعوا في قسمها ، فمنعهم الله منها ، وكف عنهم حظوظ الأنفس ، وألزمهم الإخبات والتواضع ، واسمها الجهاد كذلك ، لأن الكفار دائما أضعاف المسلمين وما جاهد قوم منا قط إلا أكبر منهم ، وتجب مصابرة الضعيف فلو كان النظر إلى غير قوته ـ سبحانه ـ ما أطيق ذلك»[1] .

وإن تعددت معاني هذه السورة فهي جميعا جارية في رافد واحد هو تبرؤ العباد من الحول والقوة ، وحثهم على التسليم لأمر الله والأنفال أدل شيء على هذا الغرض في سورة الأنفال ، فهي قطب السورة وعمودها ، لذا ذكرت في مطلعها على وجه التنازع فيها ثم عاد الحديث عن قسمها في منتصف السورة الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ** . . . ﴾ (الأنفال:٤١) .

والسياق في كل هذا يتواصل في إطار واحد هو تبرؤ العباد من الحول والقوة «ولقد حرص النظم القرآني أن يبرز الأنفال في مطلع السورة تعبيرا

(١) مصاعد النظر ١٤٦/٢، ١٤٧ .

عن الظفر والنصر الذي حققه البدريون ... ففي المقدمة براعة استهلال »[1] .

والسورة بهذا المقصود ـ الذي قرره البقاعي ـ والذي تظاهره تراكيب السورة ـ تعد جزءا من سورة آل عمران التي مقصودها التوحيد الذي من مقتضياته حياة الله وقيوميته كما قررنا ، استنباطا من كلام الأئمة[2] فمن مقتضيات الإيمان بالقيومية الثقة والتوكل والتسليم والتبرؤ من الحول والقوة . ولنا معالم دالة في الذكر الحكيم على ما تبصرناه ، فقصة بدر لم تذكر إلا في سورة آل عمران وسورة الأنفال ، وتشابهت الحلقة المذكورة في سورة التوحيد من غزوة بدر ، مع نظيرتها في سورة التبرؤ من الحول والقوة ، كما سنحاول في موازنة التراكيب المذكورة منها في السورتين .

ولعلك تجد معلما آخر في آيتين اشتبه نظمهما في السورتين وقد اختصتا بهما دون سور الذكر الحكيم في قوله تعالى في آل عمران ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (آل عمران:١١) وقوله تعالى في الأنفال مرتين : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال:٥٢) .

ثم قوله : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ (الأنفال:٥٤) كأن وجود مثل هذه التراكيب والتشابه دلالة على تقارب السياقات وتقارب التراكيب في الموضعين ، وهذا الذي نظن تتظاهر عليه التراكيب كما سيظهر .

---

(١) بلاغة القرآن الدكتور العبيسى ص ١٨ .

(٢) انظر : سورة آل عمران من هذا البحث .

ولئن كان سبب النزول معينا في الكشف عن تراكيب المطلع الذي جاء موائما لمقامه ، فدلالة تركيب المطلع على مقصود السورة وتواصله مع دلالة باقية بقاء خالدا في هيئة مبانيه .

فقد جاء السؤال بصيغة المضارع «ومجيء الفعل بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال ، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين ، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد ، ولذلك كان قوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ مؤذنا بتنازع بين الجيش في استحقاق الأنفال»[1] وذلك التنازع جاء تبعا لما ظن كل فريق من تسببه في تحصيل المسئول عنه (الأنفال) وذلك ادعاء الحول والقوة في تحصيله ينبني عليه عدم التفويض والتسليم في المتحصل بحولهم وبقوتهم ، وذلك أمر ظاهر في الجواب ولعل التنازع كان شديدا ، والتسليم كان بعيدا ، فلم يأت الجواب بالقسمة ، وإنما جاء نازعا الأنفال من المتنازعين فيها معلما لهم التسليم والتفويض مذكرا إياهم أنها ما تحصلت لهم بحولهم وقوتهم ، فكان الجواب ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ولما كانت الأنفال أول شيء لهذا الغرض أعادها بلفظها ، وذلك من وضع الظاهر موضع المضمر ، تنبيها لأهميته فلم يكن النظم قل هي لله والرسول ، وشيء آخر في هذا التركيب هو أن تكون تلك الطريقة في الأنفال عامة فلو قال (هي لله والرسول) لظن ـ بقرينة أن أل التي في الأنفال الأولى للعهد ، إذ هي أنفال بدر ـ أن التسليم إنما هو في أنفال بدر ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، ليكون ذلك القانون في الأنفال بعامة ، وذلك أنسب لمقصود السورة .

---

(١) التحرير والتنوير سورة الأنفال ص ٢٤٩ .

هذا التواصل بين السؤال والجواب في المطلع يقرر مقصود السورة وتتناغى تراكيبها معه ، وتدور تراكيب هذه السورة على نفي الدعوى ـ الحول والقوة ـ التي أدت إلى التنازع ، الذي نم عنه السؤال في مطلع هذه السورة ودوران التراكيب على اقتلاع أصل التنازع بهذه الهيئة لا يقع إلا من خالق ، تدبر معي ماذا لو قال ربنا : يسألونك عن الأنفال قل ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ... . لا ريب أن ارتضاءنا ما مضى من فاسد القول يسقط الآيات التي بين آيتي الأنفال والآيات التي وليت آية تقسيمها فتوزع الحديث عن الأنفال تنبيه إلى توحد مقصود السورة ، وأن ليس القصد من ذكرها تقسيمها ، فذلك أمر تنهض به الآية الثانية وحدها .

وقد ترتب على هذا الجواب الذي ساق الله إلينا شيئا من فيض دلالته ـ ولا يزال ـ فيما أرى ويرى غيري ـ كنزا مغلقا وسرا مكتما إلى أن يرفعه الله إليه ـ ترتبت عليه جمل تواصلت تواصلا يكشفه من له معرفة بنحو اللغة وبلاغتها ـ جاءت جمل مرتبة على الجواب هي ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ـ أَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ ـ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ـ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ وقد تعاطفت الجمل الثلاث الأول ، ولكل جملة صداها في تراكيب السورة ، مع ملحظ مهم هو ترتبها جميعا على الجواب الذي يطوي مقصود السورة بالفاء ﴿ **فَٱتَّقُواْ** ﴾ وتنهض الجملة الرابعة بمهمة أخرى ، مع تواصلها مع ما قبلها ، فقد وقعت على سبيل التذييل وجاء جواب الشرط محذوفا ليصطحب ما قبله في تقديره ـ وذلك أمر من الإيجاز عجيب فلعل التقدير : إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا ... فهو كما يقولون « شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه »[1].

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ١١٦/٢ .

وماذا لو لم تأت الأوامر الأولى بالفاء وقيل : قل الأنفال لله والرسول واتقوا الله ... وقد يكون الجواب على ما ذهب إليه «أبو العباس المبرد وغيره أطيعوا الله السابق ، إذ يجوز عندهم تقديم الجواب على الشرط ، والصحيح ما ذهب إليه سيبويه وهو أنه محذوف لدلالة ما قبله عليه ، وفيه تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال»[1].

وتأخير هذا التذييل أنتج سؤالا مؤداه هل هناك امتراء في إيمانهم؟ فجاء الجواب واقعا من سابقة موقع شبه كمال الاتصال كما اصطلح عليه أهل الفن ، وهذا الجواب «استئناف مسوق لبيان صفات المؤمنين ، فهو كالدليل لما قبله»[2] وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ . . . ﴾ (الأنفال:٢) ولا يعنى ذلك ضعف إيمانهم ، وإنما المراد كمال الإيمان ، لأن اللام في (المؤمنون) لام الكمال ، واستدل الزمخشري[3] لكونها كذلك بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (الأنفال:٤) ويتوالى الحديث عن صفات المؤمنين وجزائهم ثلاث آيات ، وكان التذييل واصلا إياها بالمطلع .

ثم جاء التشبيه حاذفا المشبه معولا على استنباطه من السياق ومستقر المشبه في مطلع السورة ، كما تأوله العلماء ، تأمل هذا الرابط البلاغي العجيب ، فيه يتحدر الأسلوب دائرا في مقصود السورة الذي هو نفي الحول والقوة ، فكأن الكلام لئن تنازعتم في الأنفال ، فلقد تنازعتم قبل ذلك في مجرد التفكير في غزة بدر ، وكرهتم لذلك فكان خيرا لابتنائه على التسليم لله والرسول حينئذ ، فلا تكرهوا التسليم في كل ما أنتجه هذا الخروج ، تأمل كيف يعالج القرآن هذه الدعوى .

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٢٢٥ .

(٢) الصاوي علي الجلالين ٢/١١٦ .

(٣) انظر الكشاف ٢/١٤٢ .

يؤيدنا في هذا الفهم ما عزاه ابن جرير إلى بعض نحوي الكوفة في الآية فقد قالوا : «ذلك أمر من الله لرسوله ﷺ أن يمضي لأمره في الغنائم ، على كره من أصحابه ، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير ، وهم كارهون ، وقال آخرون منهم : معنى ذلك يسألونك عن الأنفال مجادلة ، كما جادلوك يوم بدر فقالوا : أخرجتنا للعير ، ولم تعلمنا قتالا فنستعد له»[1] «قال الزمخشرى : يعنى أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب»[2] .

وهذا التباعد بين المشبه والمشبه به في النظم ، مع إشارته لاستحالة نزعه من هذا السياق ، له دلالة أخرى ، هي تصوير هذا الزمن الذي بين الأمرين التفكير في الخروج وتقسيم الأنفال ، وشيء آخر هو استحضار حالة الضعف وافتقاد أسباب ما تتحصل به هذه الأنفال ، والتشبيه مقايسة حال بحال كما ترى ، لذلك جاءت مظاهر الكراهة واقعة من التشبيه موقع شبه كمال الاتصال ، «كأن سائلا سأل فقال : ما مظاهر كراهة هذا الفريق؟ فقيل : يجادلونك»[3] وذلك لاستذكار حال المنازعة في الأمرين ، ثم ـ اقتضاء لنفى الحول والقوة ـ جاء تشبيه يصور حالهم في المجادلة حينئذ وكل ما نذكره من خصائص هذه السورة .

فقد كانوا في الخروج ﴿ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** ﴾ (الأنفال:٦) وذلك التشبيه من عطاء التشبيه الأول ، ووفرته وخصوبته ، وظاهر بهذا التشبيه حال القوم في عدم الثقة بالنصر ، لضعف أسبابه لديهم

---

(١) جامع البيان ١٢٢/٩ .

(٢) الكشاف ١٤٣/٢ .

(٣) مع بلاغة القرآن ص٤٤ .

وعناصر التشبيه وصياغته جاءت اقتضاء للغرض ، أرأيت كيف ظهر بالتشبيه أن القوم طلبوا بغير سبب ، وادعوا بغير حجة وتنازعوا بغير حق ، ولذلك خطره في نفي الحول وتعلم التفويض إنه القرآن لا غير هو الذي يستطيع أن يقول هذا الإعجاز ، ثم جاءت بعد ذلك (إذ) وما أدراك ما إذ؟ في استحضار ماضي الأحوال وسالف الحادثات ، لتقع في اثنى عشر موضعا من[1] السورة ولكل موقع لها هاهنا قصة من المعاني ، وفيوضات من الخواطر ، تتآخى جميعا في سبيل نفي الحول وتعلم التسليم ذلك المقصود الأعظم للسورة تدبر في هذا الإطار موقع (إذ) الأولى ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** . . . ﴾ (الأنفال:٧) .

تدبر كيف فضح المتنازعين في الأنفال أمام أنفسهم ، وذلك بتذكيرهم بهذا الخوف وعدم الثقة ـ فرضا ـ بوعد الله ، تدبر كيف أباح القرآن بمكنونهم ﴿ **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** ﴾ لم ودوا هذا؟ هذه الكتابة التي هي من خصائص السورة ، فإيثار القرآن هذا التعبير ﴿ **غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ** ﴾ له إيحاءاته في هذا الموقع في تصوير خوفهم من العدد والعدة التي يمتلكها الكفار مما يجعل القتال حديدا ، إن هذا التعبير يتناغى مع التشبيه السابق الذي يقول عنه جار الله « ثم شبه حالهم في فرط فزعهم ورعبهم ، وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة ، بحال من يعتل إلى القتل ، ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن ، وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها »[2] وهل تصل حالة الخوف إلى هذا المدى الذي

---

(١) الآيات ٧، ٩، ١٢، ٢٦، ٣٠، ٣٢، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٠ .

(٢) الكشاف ١٤٤/٢ .

يصوره الذكر الحكيم ، إلا بالاتساع والمفارقة الهائلة لوسائل القتال بين الطائفتين ، إن التذكير بهذه الأحوال يجعل المؤمن يستحي من مجرد السؤال عن الأنفال ، لكن فرحة النصر تغري ، وتأييد الله ـ أحيانا ـ ينسي ، لعل ذلك ما كان عليه المتنازعون .

ثم تدبر ـ في ضوء ما حاولنا تمثله ـ قوله تعالى : ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ** . . . ﴾ وموقع الاستغاثة من مقصود السورة المذكور في مطلعها ، وقوله ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ** . . . ﴾ وإسهامه في طمأنة القلوب ونفي المحول حتى عن الملائكة ـ إن ظن أنها سبب النصر ـ ﴿ **إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ** ﴾ تدبر موقع معية الله وأثرها في نفي الحول وقوله ـ في إطار ما قررنا ـ ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** . . . ﴾ .

ولا كهذه التراكيب في الذكر الحكيم في نفي الحول والقوة ، المؤدي نفيهما إلى التسليم والتفويض ، حتى الملائكة والرسول لا حول لهم ولا قوة ، « وأكثر أهل التفسير أن الآية نزلت في رمي النبي ﷺ القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين شاهت الوجوه ، ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء ، قال حكيم بن حزام : لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة فانهزمنا فذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ** . . . ﴾ »[1] تدبر أثر هذه التراكيب في اجتثاث أصل المنازعة ، ولا كقوله تعالى : ﴿ **وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ (الأنفال:٢٤) في نفي الحول والقوة

(١) أسباب النزول ص١٧٤ .

ـ لاسيما أنها تخللت الأمر بطاعة الرسول والاستجابة له والنهي عن خيانته ـ تلك الاستعارة التمثيلية التي لا نظير لها في الذكر الحكيم في هذا الإطار ، والمعنى ـ كما قال أبو حيان ـ «أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، والقادر على الحيلولة بين الإنسان ، وبين ما يشتهيه قلبه فهو الذي ينبغى أن يستجاب له إذا دعا إذ بيده ملكوت كل شيء»[1] وبمعنى آخر هي «تمثيل لغاية قربه ـ تعالى من العبد ـ . . أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه ، بحيث يفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده»[2] .

ولهذه الاستعارة صدى آخر في السياق يتناغى معها ، ويتشارب من فيض دلالتها ، أعقب أمر الإعداد للجهاد في قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ... ﴾ (الأنفال:٦٠).

قيد الإعداد بالاستطاعة ، تحذيرا من التكاسل عن ذات الشوكة وتنبيها إلى تنحية الحول والقوة ، وهذا التعبير من خصائص هذه السورة ، ولئن سميت بسورة الجهاد فذلك نمط آياته وهو ـ كما ترى ـ جار في مقصودها . وبعد ذلك يأتي صدى الاستعارة التي ذكرناها ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٦٢،٦٣) .

والبيان كما ترى كالشرح للاستعارة ، فلا يقدر على مثل ذلك إلا من يحول بين المرء وقلبه ، وفيه ما ترى من تنحية القوة والحول عن الرسول ﷺ تدبر هذه الاستعارة وتفسيرها في ضوء قوله تعالى ﴿ وَأَصْلِحُواْ

(١) البحر المحيط ٤/٤٨١ .

(٢) تفسير أبى السعود ٤/٥٣٢، ٥٣٣ .

﴿ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أترى أن الإصلاح يقع بغير التسليم والتفويض ، وتنحية الحول والتدبير؟

ثم تسير السورة بعد الاستعارة التي ذكرناها في هذا الإطار الذي قررناه بمثل قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ ...﴾ ثم يعاود القرآن الكريم نفي الحول عن النبي ﷺ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾ (الأنفال:٣٠) ثم تجيء آية تقسيم الأنفال ناظرة إلى المطلع تدبر هذا التذييل بعد التقسيم ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا . . . ﴾ (الأنفال:٤١) في ضوء التذييل الأول ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في آية المطلع ، والتعبير بالماضي في التذييل الثاني له موقع لطيف بعد التذكير بقصة الأنفال في إطار نفي الحول والقوة .

قال العلامة ابن عاشور عند آية التقسيم هذه هي «انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال الذي افتتحته السورة ، ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين ... والخطاب لجميع المسلمين ، وبالخصوص جيش بدر ، وليس هذا نسخا لحكم الأنفال المذكور أول السورة ، بل هو بيان لإجمال قوله (لله والرسول) »[1] .

ولعمري لم تأخر بيان هذا الإجمال إلى منتصف السورة؟ إنها علاقة الإجمال ثم التفصيل ثم جاءت (إذ) بعد آية التقسيم لتذكر المتنازعين بافتقاد كل الأسباب المادية للنصر ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾ ثم نهاهم عن التنازع الجالب الفشل وذهاب الريح ، بتركيب آخر متقارب مع تركيب سورة آل عمران في غزوة أحد

(١) التحرير والتنوير ٥/١٠ .

في قوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ . . . ﴾ (آل عمران:١٥٢) .

والنهي عن التنازع متناغ مع قوله تعالى في المطلع : ﴿ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم ... ﴾ (الأنفال:٤٧) وقد جاء هذا التشبيه « إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم ، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال ، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها ، وتنكشف مزيد الانكشاف ، إذا كانت من أحوال قوم مذمومين عند آخرين وذلك أبلغ في النهي ، وأكشف لقبح المنهي عنه »[(١)] .

تدبر هذا التشبيه مع مطلع السورة المؤذن بالتنازع ، مع ضميمة أنه قد جاءت تشبيهات كثيرة في الذكر الحكيم تحذر المؤمنين من التشبه بالضالين[(٢)] إلا أن هذا التشبيه من خصائص سورة الأنفال تأمل قول البقاعي ، وهو يسلسل المناسبة قائلا : « ولما ذكرهم ـ سبحانه وتعالى ـ ما أوجب نصرهم ، أمرا لهم بالثبات عليه ، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ، ناهيا عنه ، تعريضا بحال المنازعة في الأنفال ، وأنها حال من يريد الدنيا ، ويوشك ـ إن تمادت ـ أن تجر إلى مثل حال هؤلاء الذين محط نظرهم الدنيا فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ . . . ﴾ »[(٣)] .

فالتراكيب والأحوال تأتى مقتضيات للمقصود الذي تجمله تراكيب المطلع ، ودونك معلما آخر دالا على توحد مقصود السورة ، وتوحد

---

(١) التحرير والتنوير : سورة الأنفال ص٣٢ .

(٢) الآيات من آل عمران ١٠٥، ١٠٦، الأنفال ٢١، النحل ٩١، ٩٢، الأحزاب ٦٩، الحديد ١٦، الحشر ١٨، ١٩ .

(٣) نظم الدرر ٢٩٥/٨ .

بنائها البياني ، ففي أول السورة قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وقد بينا موقعه من مطلع السورة ، يأتي آخر الأنفال ناظرا إلى هذا التركيب مكررا إياه ، فيقول الله تعالى في آخر السورة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . . . ﴾ (الأنفال:٧٤) .

مع ضميمة أن هذين التركيبين من خصائص هذه السورة .

ويجمل بنا ـ في إطار ما حاولنا تقريره ـ أن نقارن ـ كمثال ـ بين قوله تعالى في آل عمران ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ الآية (١٢٦) .

وقوله تعالى في الأنفال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠) .

وقبل محاولة الكشف عن علل فروق هذين التركيبين نذكر كلام تاج القراء ، وكلام أبي حيان في بيان هذه العلل قال تاج القراء « قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ . . . ﴾ هاهنا بإثبات ﴿ لَكُمْ ﴾ وتأخير ﴿ بِهِۦ ﴾ وحذف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ وفي الأنفال بحذف ﴿ لَكُمْ ﴾ وتقديم ﴿ بِهِۦ ﴾ وإثبات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ لأن البشرى هنا للمخاطبين ، فبين وقال : ﴿ لَكُمْ ﴾ وفي الأنفال قد تقدم ﴿ لَكُمْ ﴾ في قوله : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ فاكتفى بذلك ، وقدم ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ هنا ، وأخر ﴿ بِهِۦ ﴾ ازدواجا بين المخاطبين فقال ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ﴾ وقدم ﴿ بِهِۦ ﴾ في الأنفال ازدواجا بين الغائبين فقال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ ﴾ وحذف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ هاهنا ، لأن ما في الأنفال قصة بدر ، وهي سابقة على ما في هذه السورة ، فإنها في قصة أحد ، وأخبر هناك بأن الله عزيز حكيم ، وجعله في هذه السورة

صفة ، لأن الخبر قد سبق»[1] ولست أدري كيف جعل ما في آل عمران من قصة أحد وفي آل عمران قال أبو حيان : «والمعنى إلا بشرى لكم ، وأثبت في آل عمران لأن القصة فيها مسهبة ، وهنا موجزة تناسب هنا الحذف ، وهنا قدم وأخر هناك على سبيل التفضيل والاتساع في الكلام ، وهنا جاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ مراعاة لأواخر الآي ، وهناك ليست آخر آية ، للتعلق ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ بما قبله ، فناسب أن يأتي ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ على سبيل الصفة ، وكلاهما مشعر بالعلية»[2] .

ولعل أبا حيان قصد بالقصة قصة البشارة بالملائكة ، وقوله على سبيل التفنن والاتساع،دفع للكشف عن دواعي هذا التفنن ومقاصد هذا الاتساع، فأنت خبير بأبي حيان من هو؟ وهذا كلام الشيخين دون تعليق ، واستبصار التركيبين عندنا معلم دال على أن مقصود الأنفال الذي هو (نفي الحول والقوة) متقارب مع القيومية التي هي من مقتضيات التوحيد الذي هو مقصود آل عمران ، جاءت قصة بدر في آل عمران في سياق ثمرة التوكل ، الذي هو من مقتضيات الإيمان بالقيومية ، وقد تخللت قصة بدر في آل عمران الحديث في قصة أحد ، ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٢) .

كأن تقارب الغرضين من عرض حلقتي قصة بدر في السورتين ، ينبه إليه تقارب التراكيب ، قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ... ﴾ (آل عمران:١٢٣) «تذكير ببعض ما أفادهم التوكل . . .

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص٥١ .
(٢) البحر المحيط ٤٤٦/٤ .

وإنما قال : أذلة ، ولم يقل : ذلائل تنبيها على قلتهم مع ذلتهم ، لضعف الحال ، وقلة المراكب والسلاح »[1] .

فعرض القصة في سياق التوكل ، ثم جاء التركيب بعد ذلك منكرا عليهم اهتزاز التوكل ، ومصورا ضعفهم وخوفهم ﴿ **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ** . . . ﴾ (آل عمران:١٢٤) قال جار الله : « إنكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، وإنما جيء بلن الذي هو لتأكيد النفي ، للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكتهم كالآيسين من النصر »[2] وهذه الحالة تنافي التوكل ، وملحظ مهم هو أن البشارة هنا جاءت بثلاثة آلاف ثم وعدوا ـ مع الصبر ـ بخمسة آلاف مسومين ، وذلك إسهاب في البشارة ، وقد جاءت البشارة بألف من الملائكة مردفين في الأنفال ، وقد استظهر الزمخشرى وغيره أن يكون مردفين بمعنى « متبعين أنفسهم ملائكة آخرين ، أو متبعين غيرهم من الملائكة ، ويعضد هذا الوجه قوله في سورة آل عمران بثلاثة آلاف ... »[3] ونقل البيضاوي أنه قد قيل :« أمدهم الله يوم بدر أولا بألف من الملائكة ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف »[4] والأسباب في قصة البشارة في آل عمران التي جاءت في سياق التوكل استدعت الخطاب في قوله : (لكم) وتقديم القلوب في آل عمران إيماء لاطمئنانها ، للإسهاب في البشارة ، وتأخير القلوب في الأنفال إيماء إلى عدم اطمئنان القلوب تناسبا مع البشارة ، كأن

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ١/١٨٠ .
(٢) الكشاف ١/٤٦١ .
(٣) السابق ٢/١٤٦ .
(٤) البيضاوى ١/١٨٠ .

التراكيب تنم عن الحالة النفسية لقلوب المسلمين عند أول البشارة في الأنفال ، وعند تتابع نزول الملائكة في آل عمران في سياق التوكل وحذفه (لكم) في الأنفال دلالة على عدم إسناد أسباب النصر إليهم تناسبا مع نفى الحول والقوة حتى عن الملائكة ، لذلك جاء بعد الآية في الأنفال بـ ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً** ﴾ دلالة على اطمئنان القلوب بالبشارة ، لذا أخر القلوب هناك .

وسياق نفي الحول والقوة اقتضى ختم الآية المناظرة لآل عمران بتذييلين ﴿ **وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ يقول جار الله : معلقا على التذييل الأول «ولا تحسبوا النصر من الملائكة ، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة»[1] أي «لا يتوقف على التأهل والتهيؤ بالعَدَد والعُدَدِ ، كما تعللتم بذلك حين كرهتم القتال»[2] وذلك فيه نظر للسياق ، ولاختصاص السورة بالتذييل الثاني دون آل عمران مزية فجملة التذييل «تعليل لما قبلها متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة»[3] إذ هو تأييد من الله متوجه نحو نفي الحول والقوة فكما ترى تعليل الفروق بين التركيبين تعليل ملبس جدا ، وذلك لقوة العلائق ، التي بين التوكل ، وبين نفي الحول والقوة والحث على التسليم والتفويض ، وكان ما مضى من القول مما ساقه الله إلينا من غير حول منا ولا قوة .

* * *

(١) الكشاف ١٤٦/٢ ومما يؤيد هذه اللطائف أن الأنفال نزلت قبل آل عمران .
(٢) الفتوحات الإلهية ٢٣٠/٢ .
(٣) تفسير أبي السعود ٥٢٠/٤ .

المبحث الثاني

سورة التوبة

تختص هذه السورة دون سور الذكر الحكيم بخلوها من البسملة دأب القرآن الكريم في مطالع السور في نصب المعالم الدالة على خصائص السورة من بدايتها،وقد ذكر الأئمة وجوها لخلو مطلع السورة من البسملة، من ذلك أنه إشارة إلى أن السورة جزء من سورة الأنفال ، لأن قصة هذه السورة شبيهة بقصة سورة الأنفال ـ وأن في الأنفال أمرا بالجهاد ـ وفي التوبة أمرا بنبذ العهود إلى آخر ما ذكروه[1] .

وهم يقتدون في عدم كتابة البسملة بعثمان ـ رضي الله عنه ـ الذي يذكر ـ مجيبا ابن عباس عن سر إسقاط البسملة ـ أن الرسول ﷺ كان «مما يأتي عليه الزمان ، وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ ووضعتها في السبع الطوال»[2] .

---

(١) انظر البرهان لابن الزبير ص١٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣١/٢ والحديث رواه الإمام أحمد وأبو دواد والنسائي وابن حبان والحاكم .

وكان إسقاط البسملة دليلا للقائلين بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم ، فالسور كلها انتظمت بقوله ﷺ وتبيينه بل كان ذلك دليلا لصحة القياس عند الفقهاء ، وهو ما قال به ابن العربي معلقا على حديث عثمان ـ رضي الله عنه ـ «هذا دليل على أن القياس أصل في الدين ألا ترى إلى عثمان وأعيان الصحابة كيف لجأوا إلى قياس الشبه عند عدم النص . . فإذا كان الله قد بين دخول القياس في تأليف القرآن فما ظنك بسائر الأحكام»[1].

وقد وجه العلماء إسقاط البسملة بأن ذلك يتناسب ومقصودها .

قال أبو السعود : «حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها في رفع الأمان الذي يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة»[2] وكلامه ـ رحمه الله ـ بين في أن ترك التسمية بتوقيف من الله وذلك التوقيف يكشف سمة بيانية للسورة الكريمة ، وقد شرح ذلك السيد محمود شكرى الألوسي قائلا : «هذه السورة لا تشبهها سورة ، فإنها ما تركت أحدا : كما قال حذيفة ـ إلا نالت منه ، وهضمته وبالغت في شأنه ، أما المنافقون والكافرون فظاهر ، وأما المؤمنون ففي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ (التوبة:٢٣) ، وهو من أشد ما يخاطب به المخالف ، فكيف بالموافق؟ وليس في سورة ـ ويل ـ ولا في سورة ـ تبت ولا ولا ، ولو سلم اشتمال سورة على نوع ما اشتملت عليه لكان الامتياز بالكمية والكيفية مما لا سبيل لإنكاره ، ولذلك تركت فيها البسملة ـ على ما أقول ـ والاسم

(١) تفسير القرطبي ٤/٢٩٩٠ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/٥٧٧ .

الجليل ـ وإن تضمن القهر الذي يناسب ما تضمنته السورة لكنه متضمن غير ذلك أيضا مع اقترانه صريحا بما لم يتضمنا سوى الرحمة ، وليس المقصود هنا إلا إظهار صفة القهر ، ولا يتأتى ذلك مع الافتتاح بالبسملة »[1] .

فهي سورة مستقلة ، واشتهارها بعدة أسماء قاض بذلك ولقد كانت أسماؤها كاشفة عن مقصودها عند البقاعي ، وذلك المقصود هو العلة في رفع البسملة ، وفي اختصاصها بهذه الخصيصة دون سور القرآن الكريم ، يقول البقاعي : رحمه الله ـ مقررا مقصود السورة (ومقصودها : معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية من اتباع الداعي إلى الله في توحيده ، واتباع ما يرضيه ، وموالاة من أقبل عليه ، وأدل ما بها على الإبلاغ في هذا المقصد : قصة المخلفين فإنهم ، لاعترافهم بالتخلف عن الداعي بغير عذر في غزوة تبوك «المحتمل على وجه بعيد منهم ـ رضي الله عنهم ـ للإعراض بالقلب ـ هجروا وأعرض عنهم بكل اعتبار ، حتى بالكلام ، حتى بالسلام ، إلى أن تيب عليهم فذلك معنى تسميتها بالتوبة ، وهو يدل على البراءة ، لأن البراءة منهم بهجرانهم ـ حتى في رد السلام ـ كان سبب التوبة ، فهو من إطلاق المسبب على السبب ، وتسميتها ببراءة واضح أيضا فيما ذكر من مقصودها ، وكذا الفاضحة ، لأن من افتضح كان أهلا للبراءة منه ، والبحوث ، لأنه لا يبحث إلا عن حال البغيض ، والمبعثرة والمنفرة والمثيرة والحافرة والمخزية والمهلكة والمشردة والمدمدة ، لأنه لا يبعثر إلا حال العدو . . وكذا المقشقشة لأنهم قالوا : إن معناه المبرئة من النفاق ـ من تقشقشت قروحه : إذا تقشرت للبراء ـ وتوجيهه أن من عرف أن الله

(١) روح المعاني ٤١/١٠ .

برىء منه ورسوله والمؤمنون لأمر ، فهو جدير بأن يرجع عن ذلك الأمر ، وعندى ، أنه مضاعف القش الذي معناه الجمع ، لأنها جمعت أصناف المنافقين »[1].

والمقصود الذي قرره البقاعي وهو (معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية) هو الذي تتظاهر عليه تراكيب السورة ، فهذه الكلمة العامة الجامعة التي ذكرها البقاعي تشمل الكفار وأهل الكتاب والمنافقين ، وقد تشابهوا جميعا في الأعراض ، فاشتبهت نظوم آيات هذه السورة الكريمة ، في بيان طرائقهم وعقائدهم وعاداتهم ، وعاقبتهم في الدنيا وفي الآخرة ، لذلك وقع كثير من مشتبه النظم داخل السورة الكريمة ، ودقائق النظم ترجع إلى مناسبة كل آية لصنفها كما سنذكر شيئا فيه بعد بيان المطلع وتحديده ، فهو الذي يكشف لنا مسار بيان السورة ، وجريان معانيها .

والمطلع ـ حسب تفهمنا لمقالات السلف ولهيئة تركيبه ـ هو قوله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية (١) جاء المطلع ـ كما ترى ـ ملائما للمقصود ، مجملا إياه من أول كلمة ، مع ضميمة خلو السورة من البسملة ، قال العلامة ابن عاشور : في هذا المفتتح « افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدل حكمة على الغرض الذي يراد منها »[2] ، وذلك أمر يرجع إلى دلالة الكلمة ، أما عن دلالتها في هذا التركيب ، ففيها العجب العاجب ، وقد اختلف الأئمة في إعراب هذه الكلمة على وجهين أولهما : أن تكون مبتدأ والخبر ﴿ إِلَى

(١) مصاعد النظر ٢/١٥٤، ١٥٥ وفي اللسان (قش الشيء يقشه قشا : جمعه ، وتقشقش : برأ) اللسان مادة قشش ص٣٦٣٦ .

(٢) التحرير والتنوير التوبة ص١٠٢ .

﴿ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾ ، وثانيهما : أنها خبر مبتدأ محذوف ، وكان الوجه الثاني أعجب إلى ابن جرير ـ رحمه الله ـ وذلك «لأن من شأن العرب أن يضمروا لكل معاين ـ نكرة كان أو معرفة ذلك المعاين هذا وهذه ، فيقولون : عند معاينتهم الشيء الحسن ـ حسن والله ، والقبيح قبيح والله ، يريدون : هذا حسن والله ، وهذا قبيح والله»[1] . وهذا التقدير فيه إشارة إلى السورة كلها ، فكلها عبارة عن براءة .

وهذا الوجه هو الذي تقتضيه جزالة النظم عند أبي السعود «لأن هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ، ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله ـ حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ، ويعجل المقصود بالذات والعمدة في الأخبار شيئا آخر هو وصولها إلى المعاهدين ، وإنما الحقيق بأن يعتني بإفادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ، ووصولها إليهم ، فإن حق الصفات ـ قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها ـ أن تكون أخبارا ، وحق الأخبار ـ بعد العلم بثبوتها لما هي له ـ أن تكون صفات»[2].

وهذا التقدير يتوجه بالمطلع نحو المقصود ، ويكشف عن بيان السورة المتناسب مع كون البراءة من الله ، ومن في هذا الموضع «ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ، ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل ، أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله ، واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين»[3] .

---

(١) جامع البيان ٩/٤٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/٥٧٩ .

(٣) المرجع نفسه ٤/٥٧٨ .

ونسبة البراءة إلى الله ورسوله أضفت عليها طابع الأمر ، وقد استشكل العلماء نسبة البراءة إلى الله ورسوله ، ونسبة المعاهدة إلى المشركين وذكر أبو السعود وجها لطيفا لنسبتها إلى الله تعالى ، فقد ذكر أن النظم جاء كذلك « للإنباء عن تنجزها وتحتمها من غير توقف على رأي المخاطبين لأنها عبارة عن إنهاء حكم الأمان ، ورفع الحظر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة ، وذلك منوط بجناب الله ـ عز وجل ـ . . . وأما المعاهدة فحين كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تتحصل في نفسها ... إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه ـ سبحانه ـ وإنما الصادر عنه في شأنها هو الإذن فيها ، وإنما الذي يباشرها ويتولى أمرها المسلمون . . . فنسبت كل واحدة منها إلى من هو أصل فيها »[1] .

وقد اختار لفظ المشركين في المطلع على الكافرين ، لتشمل البراءة أهل الكتاب ، فهم موصوفون هاهنا بالإشراك ، وقد وصف النصارى ـ دون اليهود بالإشراك والكفر في غير هذا الموضع[2] ، وتقدير المبتدأ (هذه) يجعل السورة كلها دائرة على البراءة ، ومنطوق المطلع يعني معاداة كل المشركين ومفهومه يعني موالاة الله والرسول والمؤمنين ، والمعاداة تقتضي القتال في هذا الإطار جرت معانى السورة الكريمة ، وقد جاءت التراكيب متواصلة مع المطلع في بيان مقصود السورة فجاء عقب المطلع قوله تعالى : ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (التوبة:٢) « والفاء لترتيب الأمر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحرب ... كأنه

(١) إرشاد العقل السليم ٤/٥٨٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٧، ٧٢، ٧٣ .

قيل : هذه براءة موجهة لقتالكم ، فاسعوا في تحصيل العدد والأسباب ، وبالغوا في إعداد العتاد من كل باب»[1].

وقد جاء الأمر على سبيل التهديد ، وهو تهديد إلى ميقات حدده الله الذي أوجب البراءة ، لا يملك المشركون تأخيره كما يظنون ، ولعله قال في آخر الآية : ﴿ **وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ** ﴾ بدل (المشركين) ليدخل المنافقون في الحكم ، وظاهر من تراكيب هذه السورة أن الله ـ سبحانه ـ أخزاهم وفضحهم ، ونصر رسوله ﷺ ثم عطف قوله : ﴿ **وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ** ﴾ (التوبة:٣) على المطلع ، وقيد ذلك الإعلام بيوم الحج الأكبر ، لإسقاط الحجة في الموالاة والمعاداة ، وتهكم بالكافرين فقال : بأسلوب الاستعارة التهكمية ـ ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (التوبة:٣) ثم استثنى بعد ذلك من حفظ العهد ، ثم بين بعد ذلك ما يجب أن يفعله المسلمون بعد الميقات المذكور أول السورة ﴿ **فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ** ﴾ (التوبة:٥) بهذه الاستعارة التي تومئ إلى وجه بناء الأسلوب ، فكما أن جلد الشاة واق لها ، كذلك الأشهر الحرم بالنسبة للمشركين ، وهي متناسبة مع صيغة الأمر المجازي الوارد على سبيل التهديد أول السورة في قوله : ﴿ **فَسِيحُواْ** . . . ﴾ ، وتركيب الاستعارة «فيه مزيد لطف ، لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزا لأولئك المعاهدين من غوائل أيدى المسلمين»[2] ، وقد كانت في الواقع أشد من ذلك أرأيت كيف أباح الله بعدها للمسلمين قتلهم ، وأسرهم ومحاصرتهم والقعود لهم بكل مرصد ، إلى أن يقولوا ، والملحوظ أن القرآن هنا يكثر من استخدام

(١، ٢) إرشاد العقل السليم ٤/٥٨٧ .

أسلوب الشرط والجزاء ، كأن التوبة تقوم مقام العهد وأكثر منه في حفظ الحقوق ، ثم أتاح الله فرصة أخرى لمن يريد الاقتناع مبالغة في حرية الفكر ، واحتراما للعقل .

ثم يجيء استفهام تعجبي للبقاء على عهود المشركين ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ . . .** ﴾ (التوبة:٧) والآية «مرتبطة في المعنى بقوله : براءة . . . إذ هي مسوقة للناقضين للعهود»[١] ثم يجيء هذا الاستفهام مرة أخرى ليكرر «استبعاد ثبات المشركين على العهد»[٢] في قوله : ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ** ﴾ (التوبة:٨) كأن هذين الاستفهامين التعجبيين المتواليين يكشفان عن تثاقل بعض المسلمين في إنفاذ البراءة المذكورة في المطلع ولهم في ذلك علل تبسطها السورة بعد ، وتردها بوجوه من النظم . . . والملحوظ أن التراكيب تتقارب إلى درجة التكرار في مثل قوله : ﴿ **لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً** ﴾ الآية (التوبة:٨) وقوله : ﴿ **لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً** ﴾ الآية (التوبة:١٠) قال النحاس : ليس هذا تكريراً ، ولكن الأول لجميع المشركين ، والثاني لليهود خاصة ، والدليل على هذا (اشْتَرَوا بِآيَاتِ الله)[٣] وهذا الاشتباه في النظم يناسب مقصود السورة كما قررنا استنباطا من كلام الأئمة ، وجاءت آية الأمر بقتالهم ﴿ **قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ ...** ﴾ الآيتان (التوبة:١٤،١٥) وقد وقع بينهما وبين قوله تعالى قبل ﴿ **فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ...** ﴾ الآية (التوبة:٥) استبعاد ثباتهم على العهد ، وتحينهم الفرص لقتل المسلمين

---

(١) الفتوحات الإلهية ٢/٢٢٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ٧/٥٧٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/٣٠٠٧، والبرهان للكرماني ص٩٦ .

واشتهارهم بنكث الأيمان تأمل الفارق الكبير بين الآيتين اللتين ذكرتهما ، فالآية الثانية كاشفة عن وعد الله للمسلمين وتأييده لهم ، وأن ذلك من البلاء ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾الآية (التوبة:١٦)، والآية مبتدأة باستفهام توبيخي وفيها إشارة إلى سرد المشبهات في معاداة من تبرأ الله منهم تدبر قوله ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ . «والمعنى دخيلة مودة من دون الله ورسوله»[1] .

وقد كشف الفخر ـ رحمه الله ـ مناسبة قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية (التوبة:١٧) للمطلع فقال : «اعلم أنه ـ تعالى ـ بدأ السورة بذكر البراءة عن الكفار ، وبالغ في إيجاب ذلك ، وذكر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ما يوجب تلك البراءة ، ثم إنه ـ تعالى ـ حكى عنهم شبها احتجوا بها في أن هذه البراءة غير جائزة ، وأنه يجب أن تكون المخالطة والمناصرة حاصلة ، فأولها ما ذكره في هذه الآية»[2] .

وهذا التناسب يعين على استكشافه سبب النزول يروى في الآية أنه «لما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون ، فعيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم ، وأغلظ عَلِيٌّ له القول ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا ، فقال له على : ألكم محاسن؟ قال : نعم إنا لنعمر المسجد الحرام ....»[3] ، وقد استمر رد هذه الشبهة إلى الآية (٢٢)

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠١٥/٤ .
(٢) مفاتيح الغيب ٥٩٥/٧، والبحر المحيط ١٨/٥ .
(٣) أسباب النزول ص١٨١ .

وفى الشبهة قيود في التركيب تناسب المطلع من مثل قوله : ﴿ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ ووصفهم بالشرك يوجب البراءة منهم وحسب المؤمنين شهادة الكافرين على أنفسهم بالكفر ، وجاءت الشبهة الثانية في معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ . . . ﴾ الآية (التوبة:٢٣) وذلك « أن الرجل المسلم قد يكون أبوه كافرا ، والرجل الكافر قد يكون أبوه وأخوه مسلما ، وحصول المقاطعة التامة بين الرجل وأبيه وأخيه كالمتعذر الممتنع ، وإذا كان الأمر كذلك كانت البراءة التي أمر الله بها كالشاق الممتنع المتعذر ، فذكر الله تعالى هذه الآية ليزيل هذه الشبهة »[1] .

ولا كهذه الآية في الذكر الحكيم في معاداة المعرضين ، لاسيما أنه أعقب هذه الشبهة بتقرير لها ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ . . . ﴾ الآية (التوبة:٢٤) وهي ناظرة إلى قوله ﴿ أَمْرٌ حَسِبْتُمْ . . . ﴾ فذلك من البلاء ، لأنه لا ينبغي بحال أن يواد من حاد الله ورسوله ، وكانت الآية الأولى كافية في تقرير الشبهة ، لكن النظم المعجز فصل درجات القرابة والاستكثار بها والاستكثار بالمال ، ليبين ضآلة كل ذلك بجانب موالاة الله ومعاداة من عاداه .

ثم ذكر بعد ذلك غزوة حنين ، ولها موقع لطيف في رد هذه الشبهة وقد كانوا قريبي عهد بها ، وقد غفلت قلوبهم لحظات عن الله ، وقد جاء بها في هذا الموقع « ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به ، هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد ، وحين

(١) مفاتيح الغيب ٧/٦١٠ .

يخذلهم المال والإخوان والأولاد»[1] وقد جاء النظم مثيرا إلى هذا المقصود وذلك بإذ في قوله : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ الآية (التوبة:٢٥) فالنظم ـ كما ترى ـ متوجه لاستنكار حالة الإعجاب لأن إذ بدل من يوم حنين ، وقد ذكروا أن حنين كانت ذات مواطن كثيرة لكنه لم يرد هاهنا إلا حالة الإعجاب بالكثرة ، ثم بين لهم عاقبة الإعجاب ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (التوبة:٢٥) وفي هذه القصة تهديد لمن يستمسك بهذه الشبهة ، وذلك يفسر لنا اختصاص السورة بغزوة حنين ، ثم زالت حالة الإعجاب ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ (التوبة:٢٦) .

وتأتي بعد ذلك الشبهة الثالثة في عدم إنفاذ البراءة وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ الآية (التوبة:٢٨) . والآية ناظرة إلى الشبهة الأولى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ ﴾ والتراكيب بهذه الهيئة تشير إلى توحد مقصود السورة، وموطن الشبهة قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ وذلك «لأنه ﷺ لما أمر عليا أن يقرأ على مشركى مكة أول سورة براءة ، وينبذ إليهم عهدهم . . . قال أناس : يا أهل مكة ستعلمون ما تلقونه من الشدة ، لانقطاع السبل ، وفقد الحمولات فنزلت هذه الآية»[2] .

---

(١) في ظلال القرآن ١٦١٦/٣ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦١٧/٧ .

« كان المسلمون لما منعوا المشركين من الموسم ، وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات ، قذف الشيطان في قلوبهم الخوف من الفقر ، وقالوا : من أين نعيش ، فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله ، قال الضحاك : ففتح الله عليهم باب الجزية من أهل الذمة بقوله : قاتلوا الذين . . .»[1].

ثم صرح القرآن هاهنا بمعاداة أهل الكتاب ، وهو ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ الآية (التوبة:٢٩) والتركيب في آخره متقارب مع قوله تعالى في أول السورة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ولما أمر الله بمعاداتهم هنا بين عقيدتهم في الإشراك ، ولم تبين سورة في الذكر الحكيم إشراك اليهود كما بينته سورة براءة ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ الآية (التوبة:٣٠) فقد اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله بذلك التركيب الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، وهو متناسب جدا مع ما في المطلع من قوله : ﴿ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ ناهيك بهذا الفعل ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، والذي يصور تقارب عقائد اليهود والنصارى والمشركين ، والكاشف عن كثير من أسرار التراكيب المتقاربة في شأن هذه الفرق جميعا ، وبعض هؤلاء الأرباب الذين اتخذوهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ـ هؤلاء جميعا تهكم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٣٣/٤ .

الله بهم ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأنهم يضاهئون قول الذين كفروا وقد تهكم الله بعذابهم في أول السورة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:٣) .

ثم عاد السياق ـ بعد بيان من عادى من الفرق ـ إلى تفصيل الميقات الذي ذكره في أول السورة ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ – فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾، ليبين جريمتهم جميعا في تبديل هذه الأشهر ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ ﴾ (التوبة:٣٦) ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ . . . ﴾ (التوبة:٣٧) ، ولم يذكر في الذكر الحكيم زيادة في الكفر إلا هاهنا .

ثم تعجب النظم بعد ذلك من تثاقل المسلمين عند الدعوة لمعاداة هذه الفرق جميعا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ . . . ﴾ (التوبة:٣٨) بهذا الفعل الذي يصور التثاقل والقعود ، ويتناغى مع التعجب بعد عرض جرائمهم ، وهذا الاستفهام التعجبي ، يتناغى مع الاستفهام التعجبى في أول السورة ، ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ـ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ ـ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ . . . ﴾ ، وكل ذلك النظم البياني ، يتدبر في ضوء المطلع الذي بنوره تتكشف طرائق المباني ، وتستبصر مجاري المعاني .

والسورة الكريمة من هنا إلى آخرها في غزوة تبوك تلك التي فضحت أمر المنافقين ، وأمرت بمعاداتهم فقد رووا «أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حنين أمر بالجهاد لغزو الروم ، وذلك في زمان عسرة من الناس ، وجدب من البلاد وشدة من الحر ، حين أخرقت النخل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في

المساكن والمال وشق عليهم الخروج إلى القتال ، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية»[1].

وذلك السبب لنزول الآية يكشف لنا سر كثرة الاستفهام التعجبي من التثاقل في إنفاذ البراءة من المشركين ، وفي الاستطراد في رد شبه معاداتهم ، فقد كان يرغبهم في مقاتلتهم أول السورة ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ الآية (التوبة:١٤) وبعد رد الشبه قال مهددا ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ الآية (التوبة:٣٩) ، ثم كشف النظم المعجز عن قدرته على ذلك بتذكيرهم بموقف هجرة النبي ﷺ وأمر من التناسب بين سور القرآن عجيب ، ففي سورة الأنفال ذكر تآمر المشركين بالنبي في دار الندوة ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ﴾(الأنفال:٣٠)وأشار إليه في أول السورة هنا ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ الآية (التوبة:١٣) ثم شرحه هنا بما يتناسب والسياق وتتابع البناء بإذ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠) تدبر هذا التكاثف واكتناز المعاني ، لاستحضار هذا الموقف الذي تكاثر المشركون على النبي ﷺ فيه وقدرة الله سبحانه في غشيان أبصارهم حين الغار ، والقول الباقي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ وبناء الجملة بعد بفاء التعقيب ، ومقارنتها بثم في غزوة حنين في قوله : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا ﴾ ، وذلك القول الذي ينبغي أن يعليه الجهاد ، وتلك الكلمة التي ينبغي أن تبذل لها الأنفس والأموال ، وتفرد هذه السورة

(١) أسباب النزول ص١٨٤ .

الكريمة بها ، وقد علا الإسلام بالهجرة ، تدبر تقارب هذه التراكيب مع تركيب غزوة حنين ، وذلك لتقارب مغزى القضيتين ومهمتهما في سياق معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية .

وفي تراكيب هذه القصة من التهديد للمتثاقلين ـ ما ترى ـ وحثهم على التشرف بنصر النبي ﷺ أمر واضح في التراكيب وفي مغزى القصة ، ومعذب ذلك الذي يتثاقل عن طلب هذا الشرف ، وإن أصر على ذلك فليمنعنه ، ودونك ما صرح به الذكر الحكيم بعد من نحو قوله في الحرمان من شرف طاعة الأمر ﴿ **قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَسِقِينَ** . . . ﴾ (التوبة:٥٣) وقوله : ﴿ **فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ** ﴾ (التوبة:٨٣) .

وقد جرى عرض قصة تبوك في سياق الجهاد بالمال وبالنفس ، وصنف السياق المنافقين في هذين الإطارين ، وكما قال الفخر ـ رحمه الله ـ « اعلم أن هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين ، ولا شك أنهم أقسام وأصناف فلهذا السبب يذكرهم على التفصيل »[1] .

ومن الخصائص البيانية لهذه السورة وضوح أسلوب التصنيف لجرائم المنافقين ، من مثل قوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى** . . . ﴾ الآية (التوبة:٤٩) .

وقوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٥٩) وقوله : ﴿ **وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٦١) وقوله : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ** . . . ﴾ الآية (التوبة:٧٥) وصنف المنافقين من الأعراب في مثل

(١) مفاتيح الغيب ١٠٣/٨ .

قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ . . . ﴾ الآية (التوبة:٩٨) وقوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ . . . ﴾ الآية (التوبة:١١١) ، والمنافقون جميعا يضاهئون المشركين . يكشف لك هذه المضاهاة تركيبان في السورة الكريمة لا نظير لهما في الذكر الحكيم فلئن قال الله سبحانه في المشركين ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ . . . ﴾ الآية (التوبة:٢٨) فلقد قال في المنافقين ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ (التوبة:٩٥) وهم يقولون : هذا رجس نجس تصويرا للخبث باللفظين فهم يستوون جميعا في البراءة منهم ، ثم تدبر تهديد الله للمتثاقلين ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وعرض السورة بعد لتعذيب المنافقين في الدنيا بالمال والأولاد مجمل الشبه التي حالت دون إنفاذهم البراءة ، وتشابهت تراكيب آيات النفاق داخل هذه السورة الكريمة ، لأنهم كما قال ربنا ـ في هذه السورة دون غيرها ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ الآية (التوبة:٦٧) لذلك تشابهت نظوم آياتهم وعاقبتهم ، نأخذ من ذلك مثلا قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ الآية (التوبة:٥٥) . . . . وقوله : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ الآية (التوبة:٨٥) .

وقد وجه العلماء هاتين الآيتين عدة توجيهات منها[1] .

١- أن يكون التركيب الثاني في حق فريق غير الفريق الأول .

٢- أن يكون التركيب قد تكرر للتوكيد .

---

(١) يراجع في ذلك البرهان للكرماني ص٩٧، ٩٨، وتفسير أبي السعود ٤/٧٠٣، والبحر المحيط ٥/٨١، والقرطبي ٤/٣١٤٨، والصاوي على الجلالين ٢/١٦٢.

ومفاد كلامهم أن التركيب الثاني أقوى من الأول ، لاسيما أنه أسقط وصف الدنيا بالحياة في التركيب الثاني بيانا لخستها ، واستئناسا بما سبق في السياق من موت المنافقين ـ والحق أن التوجيهات جميعا لها في السياق ما يؤيدها ، فلئن كان الغرض التوكيد فذلك أمر ظاهر في تفضيل المنافقين البقاء في المال والولد على الجهاد ، وفي ذلك تعذيب لهم إنفاذا لوعيد الله ﴿ **إِلَّا تَنفِرُواْ** . . . ﴾ ولئن كان كل تركيب في حق فريق ، فذلك أمر ظاهر في السياق الذي عني بتفصيل أحوال المنافقين ، وتقارب التركيبين يدل على تقارب الصنفين ، لأن المنافقين جميعا بعضهم من بعض كما ذكرت السورة .

على أن في وصف المنافقين بالكفر مضاهاة للكفر في التبرأ منهم ، لذلك ذكر لهم في هذه السورة الكريمة دون سور الذكر الحكيم عقوبات تخزيهم ، تناسبا مع قوله : ﴿ **وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ** ﴾ أول السورة من ذلك قوله : ﴿ **يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ** ﴾ الآية (التوبة:٦٤) ﴿ **ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ** ﴾ الآية (التوبة:٨٠) ﴿ **فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا** ﴾ الآية (التوبة:٨٣) ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا** ﴾ الآية (التوبة:٨٤) ولا كقوله تعالى : ﴿ **وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ** ﴾ الآية (التوبة:١٠١) بل من أشد التعذيب لهم نهى النبي ﷺ من الصلاة في مسجد الضرار بناء المنافقين ﴿ **لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا** ﴾ الآية (التوبة:١٠٨).

لا نظير لتراكيب هذه السورة الكريمة في الأمر بالتبرأ من أعداء الله ومعاداتهم ، كما أجمل ذلك مطلع السورة الكريمة ، بل تعالى صوت هذه السورة في التبرأ منهم أمواتا كالتبرأ منهم أحياء ذلك ما كشفت عنه بصيرة الفخر الرازى عند قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (التوبة:١١٣) قال : رحمه الله ـ «اعلم أنه تعالى لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه بين في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم ، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم ، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم ، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات ، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب»[1]، وكلام الفخر ـ رحمه الله ـ ظاهر في أن تراكيب آيات المنافقين ومعانيها جرت في مقصود السورة ذلك الذي بينا ـ استنباطا من كلام العلماء ـ أنه مجمل في مطلعها .

ثم ذكرت السورة بعد ذلك قصة المخلفين ، وبينت كيف شددت السورة في قبول توبتهم كما قال النظم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ . . . ﴾ الآية (التوبة:١١٨) وذلك يتناسب مع تركيب مطلع السورة ، الحاث على البراءة ، المحارب كل من لا ينفذها ويقوم بمقتضاها ، وعادت السورة بعد ذلك إلى ما بدأت به من الأمر بمعاداة من أعرض عما دعت إليه السورة الماضية في قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ

(١) مفاتيح الغيب ١٩٤/٨ .

غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ الآية (التوبة:١٢٣) ـ وفي ذلك كما قال العلماء رد لمقطعها على مطلعها .

وختمت بقوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ الآية (التوبة:١٢٩) ـ وهو متناغ مع قصة الهجرة التي وردت داخل السورة ، ومع التهديد بالعذاب في الدنيا وفي الآخرة عند التولي ، وكشف عن نسبة البراءة إلى الله ورسوله من المشركين دون غيرهما في المطلع وبيان لاتباع الرسول لإنفاذ البراءة ، وإن تولى ناصروه وكان ما ذكرناه من حديث هذه السورة استبصارا لكلمة البقاعي في مقصود السورة .

فالله أعلم .

* * *

المبحث الثالث

سورة النحل

الشائع أنها سورة النحل ، وعن قتادة أنها تسمى «سورة النعم»[(١)] والنحل من جملة هذا الاسم ، وعللوا لتسميتها بالنعم بتعداد كثرة النعم فيها [(٢)] وليس تعداد النعم مقصودا تسعى السورة بتراكيبها إليه ـ فما من سورة إلا وفيها نعم مذكورة ـ لكنه ـ فيما أرى ـ سبيل الكشف عن مقصود تتظاهر تراكيب السورة عليه ، ومقصود السورة ـ كما أبصره البقاعي ـ «الدلالة على أنه ـ تعالى ـ تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار ، منزه عن شوائب النقص ، وأدل ما فيها على هذا المعنى أمر النحل لما ذكر من شأنها في دقة الفهم ... ووسمها بالنعم واضح في ذلك»[(٣)] وتقرير هذا المقصود ناظر إلى المطلع وتراكيب السورة ، وعلى اختلاف موضوعاتها ظاهرا ترى تراكيبها تنادي على انتظامها في هذا المقصود ، واستبصار هذا الخيط الخفي مما تنقضي الأعمار دون إظهاره وكشفه .

وينظم الشيخ الصعيدي مقصود السورة ناظرا إلى ظاهر موضوعاتها فيقول : «يقصد من هذه السورة إنذار المشركين بالعذاب ، وإبطال شركهم

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٤/٩، وغرائب القرآن ٤١/١٤، والصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢، وروح المعاني ٨٩/٤، والتحرير والتنوير ٩٣/١٤ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢ .

(٣) مصاعد النظر ٢١٣/٢، والصاوي على الجلالين ٣٠٤/٢ .

ورد شبههم على القرآن والنبوة والبعث ، وهي أمور متشابكة متلازمة وقد افتتحت بآيتين أجملت فيهما تلك الأغراض ، ويقصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيهما »[1] على أن ما ذكره ـ رحمه الله ـ من تقرير المقصود شائع في كثير من السور لكن بحسبه الإشارة إلى أن الآيتين الأوليين أجملتا مقصود السورة ، وذلك المطلع هو قوله تعالى كما يظهر من كلام البقاعي فيما يأتي : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (النحل:١، ٢) .

وهن أربع كلمات صدرت بهن السورة الكريمة ، وقد تواصلن تواصلا كشف عن جريان معاني السورة ، وكشفن بنورهن أسرار دقائق فروق تراكيب السورة كما لحظه الربانيون من الأئمة على ما نورده من بصائرهم الكلمة الأولى ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ تثبت تمام قدرته سبحانه ، فكان مقتضى الكلمة الثانية ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ أن يقال : سيأتي أمر الله ، لكنه أخرج ما لم يقع مخرج ما قد وقع ، «على طريق الاستعارة التبعية التي جعلته بمنزلة الآتي الواقع »[2] .

وذلك المسلك في بيان البشر يسعى إليه عند توفر أسباب حصول الشيء لغاية تجعله بمثابة ما قد حصل وقد جاء في كلام من يملك الأسباب على هذا المسلك .

وقد يكون الماضي باقيا على وضعه ، وذلك بأن يكون المراد إتيان مباديه[3] وهذا المراد يقويه سبب النزول فيما روي من أن المشركين

---

(١) النظم الفني في القرآن ص١٦٧ .

(٢) الكشاف ٢/٤٠٠، وحاشية الصاوي ٢/٣٠٤ .

(٣) روح المعاني ١٤/٩٠ .

استهزءوا لما نزل أول القمر وزاد استهزاؤهم بنزول أول الأنبياء «وقالوا : يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به ، فأنزل الله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فوثب النبي ، ورفع الناس رؤوسهم ، فنزل ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ فاطمأنوا ، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بإصبعيه ـ إن كادت لتسبقني»[1].

وله في السورة ما يؤيده أيضا ، مع ضميمة ما ذكر من ظهور علامات الساعة في كتب السنة ، وهو متناسب جدا مع الكلمة الثانية في المطلع ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ ومتناسب مع تعداد النعم ، كما أن الوجه الأول متناسب مع سبب النزول ومع الفاعل ﴿ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ ومع كثير من تراكيب السورة ، فالراجح في المراد بأمر الله عذابه عند السلف ، وقد ضعفوا أن يكون المراد بأمر الله فرائضه تعويلا على أنه لم يثبت عن الصحابة أنهم استعجلوا فرائض الله[2] .

وكأنه ألقى بهذا التعبير في صدر السورة حتى يتناسب مع كل التراكيب الواردة في إطاره . فالتعبير بالأمر يشمل كل أنواع العذاب الذي منه الساعة وأعظمه هي فلم يقل : أتى عذاب الله ، وإنما عبر عنه بالأمر «للتفخيم والتهويل وللإيذان بأن تحققه في نفسه ، وإتيانه منوط بحكمه النافذ ، وقضائه الغالب»[3] . وفي هذا التعبير من إبراز تمام القدرة ما ترى ، مع ضميمة إضافته إلى الاسم الأعظم والكلمة الثانية في المطلع ، أبانت عن تمام علمه ـ سبحانه ـ الذي يقتضي تأخير العذاب ، وإيقاعه في أي وقت

(١) أسباب النزول ص٢٠٩ .
(٢) ينظر : جامع البيان ٥٢/١٤، ٥٣ .
(٣) إرشاد العقل السليم ٤٢٢/٥ .

شاء ، وإمهال الكفار والإنعام عليهم والكلمة الأولى تقتضي تفرده بالخلق والملك والإنعام وغير ذلك ، والجملة الثانية تقتضي تفرده بالعلم بمهمات الكلمة الأولى ، وكل ذلك شائع في سياق السورة ، وهو وإن كان شائعا في الذكر الحكيم كله ـ إلا أن الكلمة الثالثة ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أبانت عن هيئة جريان معاني مقتضيات الكلمتين الأوليين في إطار المقايسة بين الإله الحق وبين معبوداتهم والجملة ـ كما قال ابن عاشور «مستأنفه استئنافا ابتدائيا ، لأنها المقصود من الوعيد ، إذ الوعيد والزجر إنما كانا لأجل إبطال الإشراك ، فكانت جملة ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ كالمقدمة وجملة ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ كالمقصد»[1] .

وقد كشف أبو السعود عن صلة الجملة الثالثة بالجملتين الأوليين وقد كان ـ فيما أرى ـ ناظرا إلى جريان معاني السورة ـ لاسيما ما اختصت به دون غيرها ـ وكأن معاني السورة عنده تفصيل لما أجمله المطلع فيما يقول : رحمه الله ـ «ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج إشراكهم المستتبع نسبة الله ـ عز وجل ـ إلى ما لا يليق به من العجز والاحتياج إلى الغير ، واعتقاد أن أحدا يحجزه عن إنجاز وعده ، وإمضاء وعيده . . . فقيل بطريق الاستئناف : سبحانه . . .»[2] وهو من نور ما علل به الزمخشري لموقعها في قوله «لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك»[3] .

وقد أبان سبب النزول عن الاستهزاء بالوحي والموحى إليه ﷺ فنسب الوحي إلى الملائكة ، والآية الثانية كلها جملة واحدة ، لأنها كالتفصيل

(١) التحرير والتنوير ٩٨/١٤ .
(٢) إرشاد العقل السليم ٤٢٣/٥، ٤٢٤ .
(٣) الكشاف ٤٠٠/٢ .

لقوله : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ . . .﴾ ذلك تنوير كلمة الفخر الرازي عند الآية فيما يقول: « هذه الآية تدل على أن الروح المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ... ﴾ ليس إلا لمجرد قوله تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ »[1] وقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ رجوع لقوله : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ وقوله : ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ . . . . . « رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود »[2] في قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ . . . ﴾ أو أنه « تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على التوحيد »[3] ولو قال فاعبدون ما تناسب مع الكلمة الأولى ، وما أشعرت به من الوعيد .

واستعجال العذاب من المشركين يوحى بالمجادلة عن الشريك ، فتواردت النعم تواردا متتابعا ناظرا إلى المطلع ، فجاء قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهو ناظر إلى المطلع كاشف عن أن النعم المذكورة جميعا ، لبيان تنزيهه ـ سبحانه ـ وتمام علمه وقدرته ، وقوله ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ كاشف عن جريان المعاني المصورة للمجادلة عن الشريك ، فجاءت تشبيهات المقايسة بين المعبود الحق وبين معبوداتهم ، مفصلة ما أجمله المطلع ، فسياق السورة هو نور المطلع لأنه تفصيل له ، والمطلع هو نور سياق السورة ، لأنه مجمل مغزى السورة ، وبيان المغزى من كل تركيب يكشف أسرار صياغته ، وعلل النحو فيه .

ولأجل الغرض المجمل في المطلع ، جاءت طرائق البيان في السورة على نحو ما أشار إليه المطلع ، فجاء ذكر النعم الدالة على تمام القدرة

---

(١) مفاتيح الغيب ٩/٤٦٩ .

(٢) أنوار التنزيل ١/٥٤٨ .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٣٠٤ .

والعلم وعقب ذكر كل جملة من النعم تأتي مقايسة وإنذار بالعذاب ، وكثر ذكر لفظ (نعمة) كثرة تتفارق به السورة عن سائر السور ، فقد جاء ذكره في سبعة مواضع[١] ، وجاء في مثل القرية ، وقصة إبراهيم[٢] لفظ (أنعم) جمع قلة ولم يقع في غير هذه السورة .

وقد تتابع ذكر النعم من الآية (٣) المبدوءة بقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... ﴾ إلى الآية (١٦) ثم أعقبها تشبيه من خصائص هذه السورة، وهو ناظر إلى بداية ذكر هذه الجملة من النعم ، وناظر إلى المطلع ـ كما حاولنا كشف بيانه ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ . . . ﴾ (النحل:١٧) بهذا التناغي العجيب ، مع ما يوحي به المطلع من المجادلة ، وما يشي به وصف الإنسان بأنه خصيم مبين ، وقد أجمل ذكر النعم عقب هذا التشبيه بقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ (النحل:١٨) « وهو تذكير إجمالي بعد تفصيل النعم »[٣] ، وقد ختمت الآية بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ لتصل بالغرض ، وتفارق نظيرتها في سورة إبراهيم ، كما أبصر البقاعي التركيبين بنور المطلع ، وعلل لختامها هنا بقوله : « لأن تلك سورة النعم بدئت بالنهي عن استعجال العذاب ، لأن الرحمة أسبق ، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع »[٤] أما سورة إبراهيم ، فقد افتتحت بأن الناس في ظلمات كما مضى في سورة إبراهيم ولولا أن المطلع يحمل المقصود لما كانت تلك الرؤية عند البقاعي ، ووقع قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ

(١) الآيات ١٨، ٥٣، ٧١، ٧٢، ٨١، ٨٣، ١١٤ .
(٢) الآيات ١١٢، ١١٤ .
(٣) الصاوي على الجلالين ٣٠٧/٢ .
(٤) نظم الدرر ٤٢٣/١٠ .

﴿ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النحل:٢٠،٢١) وهو شرح لقوله ﴿ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ وليس تكرارا «لأنه أولا أفاد أنهم لا يخلقون شيئا ، وأفاد أنهم مع كونهم لم يخلقوا شيئا هم مخلوقون ففيه زيادة»[1] وهو بناء متناسب مع مقصود تمام العلم لله وقدرته وتنزيهه عن الشريك ، كهيئة بناء المطلع في التظاهر على هذا المقصود ، مع ملحظ مهم ، هو أنه في ثنايا استكمال هذه المقايسة وقع قوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ . . . ﴾ (النحل:١٨) وهو مفيد تمام القدرة وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . . . ﴾ (النحل:١٩) وهو مفيد تمام العلم ، وجاء التصريح بالوحدانية عقب نهاية هذا التشبيه الذي جاء على هيئة المقايسة في قوله : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢) .

فقد أثبت هذا القياس تمام القدرة ثم تمام العلم ، ثم نزه الله عن الشريك ، بذلك البناء الذي يتعاظم العجب منه ، ولعله الشيخ الصاوي كان يلحظ هنا في قوله عند هذه الآية «وهذا نتيجة قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وحينئذ فيكون المعنى أتى أمر الله فآمنوا ، وصدقوا أخبارنا ولا تنكروها فالذين لا يؤمنون . . . .»[2] ولا جرم أن قوله : ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ من نور قوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ وكذا قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (النحل:٢٣) ثم ذكر الذكر الحكيم صورة من صور هذا الخصام ، فيها من نور المطلع ما لا يتسع المقام لبسطه ، ومما له علاقه مباشرة بالمطلع قوله : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ ﴾ (النحل:٤٠) .

---

(١) الصاوي على الجلالين ٣٠٧/٢ .

(٢) الصاوي على الجلالين ٣٠٨/٢ .

وقد لحظ ابن عاشور أن قوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً ﴾ (النحل:٤٣) ذو علاقة بقوله : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ في قوله عند الآية : « وهذا ينظر إلى قوله في أول السورة ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ »[1] .

ثم عاد النظم إلى ذكر جملة من النعم من قوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ (النحل:٤٨) وجاءت آية السجود الدالة على عدم استكبار كل خلائقه سبحانه ـ كذلك ختمها بقوله : ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل:٤٩) وهو من نور قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ (النحل:٢٣) وقوله : ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢) وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ﴾ (النحل:٣) ونور المطلع ، وذلك مما عقدت به الآيات من قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (النحل:٥٠) ، لأنه يباشر العلاقة بقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ الذي يباشر قوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ وذلك يكشفه ما صرح به بعد من قوله : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (النحل:٥١) والعلاقة بين المطلع وبين قوله : ﴿ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ ظاهرة ، ومحل التهديد المصرح به التنزيه عن الشريك وعن النقص مذكور في المطلع ، هيئة بناء المطلع ظاهرة جدا في كل عناصر سياق السورة ، ولذلك ذكر بعد هذا التهديد قوله : ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (النحل:٥٢) وهو من نور قوله : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (النحل:٣) مع ملحظ مهم أنه قدم المفعول في التهديدين ﴿ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ فكان التهديد ها هنا أبلغ من التهديد في المطلع ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ تناسبا مع إجمال الغرض في المطلع ، ومع التفصيل الذي شاع من بداية

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٦٠ .

ذكر النعم إلى هنا ، ولا كقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) في بيان تمام القدرة .

ثم يمهد السياق لإجراء مقايسة أخرى متصلة ببيان تمام القدرة من قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ (النحل:٥٦) ويضع الذكر الحكيم معالم تنادي على علاقة التراكيب داخل السورة بالتراكيب في مطلعها مثل قوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ (النحل:٦١) وقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل:٦٨) لذلك كان أمر النحل أدل على تمام قدرته من بين سائر مخلوقاته لما في شرابه من الفوائد العجيبة ، وغير ذلك مما أبانت عنه السنة ، وكشفه الطب فيما بعد ، فأبان القدير عن أن هذه الأعاجيب في أمر النحل وحي ، والنحل من عباده ، وكأني بصوت هذا التعبير يتعالى في النداء على قوله : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ وهذا تواصل عجيب في بناء المعاني في السورة القرآنية ينفصل به كلام الله عن بيان الناس ، فسبحان من أنزله ولله نوره .

والملحوظ أن النعم الواقعة في التمهيد لمقايسة تجري بين المعبود الحق ومعبوداتهم هي المذكورة في العنصر الأول من السورة بعد المطلع من ذكر الماء ، والأنعام وغير ذلك ، ولابن عاشور ملمح لطيف في التفريق بين قوله هنا : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ (النحل:٦٥) وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ (النحل:١٠) في قوله : « فكان ذكر إنزال الماء في الآية مسوقا مساق الاستدلال وهو هنا مسوق مساق الامتنان ..... وبهذا الاعتبار خالفت هذه النعمة المذكورة في قوله سابقاً : هو الذي أنزل .... باختلاف الغرض الأول »[1] ولله هداه فيما نور من أن

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٩٧ .

عناصر سياق السورة ، قد تتقارب في بنائها لدرجة إيهام التكرار ، وتقع بعض الفروق إيذانا بقوة الملابسة ، ودقة المفارقة في آن واحد ، وذلك لأن المساقين يساقان في مقصود واحد ، هو تمام علم الله وقدرته والمقايسة التي تمهد الآيات لها ، مقايسة في الامتنان ، كما سيظهر ، ومما له صلة بما نحن فيه من بيان العلاقات ما فرق به البقاعي بين قوله هنا : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ (النحل:٦٦) وقوله في المؤمنون : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ (النحل:٢١) بقوله « ولما كان الأنعام اسم جمع فكان مفردا ـ كما نقل ذلك عند سيبويه ـ وذكر المسقى وهو اللبن لما اقتضاه سياق السورة من تعداد النعم ، فتعينت إرادة الإناث لذلك ، فانتفى الالتباس مع تذكير الضمير قال تعالى : ﴿ مِمَّا ﴾ أي من بعض الذي ﴿ فِي بُطُونِهِ ﴾ فذكر الضمير لأمن اللبس والدلالة على قوة المعنى ، لكونها سورة النعم بخلاف ما في المؤمنون »[1].

وسياق الامتنان هو الحكومة في الفرق بين الأسلوبين ، وقد أبصر البقاعي الفرق بين قوله تعالى هنا ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (النحل:٧٠) وقوله في الحج : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (النحل:٥) في نور المقصود الذي يجمله المطلع يقول « ولما كان مقصود السورة الدلالة على تمام القدرة ، وشمول العلم والتنزه عن كل شائبة نقص ، وكان السياق هنا لذلك . . . . بدليل ختم الآية نزع الخافض للدلالة على استغراق الجهل لزمن ما بعد العلم ، فيتصل بالموت ولا ينفع فيه دواء ، ولا تجدي معه حيلة فقال : بعد علم »[2].

---

(١) نظم الدرر ١٩٣/١ .

(٢) نظم الدرر ٢٠٦/١١ .

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ ﴾ (النحل:٧١) ناظراً إلى آية المهاد لتمثيل المقايسة في الآية ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (النحل:٥٦) ومتواصلا مع مثلي المقايسة في قوله : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبۡدًا ﴾ (النحل:٧٥، ٧٦) كاشفا أن السياق سياق الامتنان كما لحظ الأئمة فقد ذكروا أن قوله : ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ ﴾ «مثل ضربه الله ـ تعالى ذكره ـ للمشركين بالله ... وهذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد شارك مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ، فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منه من نفسك ولا تعدل بالله أحدا من عباده وخلقه»[(١)] «أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء»[(٢)] ، وختم الاستعارة التمثيلية هذه ، برابط يكشف عن علاقة سياق النعم ، بتمام القدرة والعلم كما نور المطلع ، ذلك قوله : ﴿ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ (النحل:٧١) وما بعده ، وجاء قوله : ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـًٔا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ (النحل:٧٣) ليرجع بنا إلى التمهيد لتمثيلات المقايسة في قوله : ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ (النحل:٥٦) وأحالنا بقوله : ﴿ شَيۡـًٔا ﴾ الذي أفاد استغراق ملكيته ـ على المقايسة الأولى في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا ﴾ (النحل:٢٠) ثم جاءت الاستعارتان التمثيليتان اللتان كشفتا بالتصوير البياني دقائق علاقات السياق ، وتضامت بها هذه العلاقات وتواصلت بالمطلع تواصلاً محكماً ، يكشف البقاعي ـ رحمه الله ـ مناسبتها فيقول : «ولما ختم سبحانه وتعالى ـ بذلك تأكيد الإبطال مذهب عبدة الأصنام بسلب

(١) جامع البيان ص١٤/٩٥، ٩٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٨٦٧ .

العلم الذي هو مناط السداد عنهم حسن أن يصل به قوله ـ إقامة للدليل على علمه بأن أمثاله لا يتطرق إليها الطعن ، ولا يتوجه نحوها الشكوك فقال : ضرب الله»[1] فالاستعارتان دليل على علمه فيما يقول ، وقد ذكر القرطبي أن قوله ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً ﴾ «منتظم بما قبله من ذكر نعم الله عليهم ، وعدم مثل ذلك من آلهتهم»[2] .

وقال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ «ومعلوم أنه يمتنع أن يكون أمر بالعدل وأن يكون على صراط مستقيم إلا إذا كان كاملاً في العلم والقدرة»[3] بل قد لحظ رحمه الله ـ أثر هذا السياق في بناء قوله : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل:٧٧) وقد وجه تعقيب الاستعارتين التمثيليتين[4] بهذه الآية فقال : بعد بيان أن المثلين أولهما دال على تمام علمه ، وثانيهما دال على تمام قدرته ـ «ذكر في هذه الآية بيان كونه كاملا في العلم والقدرة ، أما بيان كمال العلم فهو قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ . . .﴾ وأما بيان كمال القدرة فقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ ... ﴾

---

(١) نظم الدرر ٢١٥/١١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٨٧٢/٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ٥٩٩/٩ .

(٤) وقد عدهما الزمخشري تشبيهي تمثيل ، وأوضح السيد الشريف أن مراد الزمخشري أن طريق الاستعارة أن يطوي ذكر المشبه قطعا ، وألا يكون منويا أو مرادا ، وقد ذكر أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ . . . ﴾ تمثيل وقاس هذين التمثيلين عليه ، وذكر أن من عدهما من قبيل الاستعارة فقد خالف سلامة الفطرة .
يراجع : الكشاف ٢١٠/١، وحاشية السيد على الكشاف ٢١٠/١، وأسرار البلاغة ص٢٩٦، ٢٩٧ .

والمراد منه تقرير كمال القدرة»[1] كأن كلامه ـ رحمه الله ـ هو نور بصيرة البقاعي ـ رحمه الله ـ في تقريره مقصود السورة وتشبيه سرعة وقوع الساعة يرجع به البقاعي إلى أول السورة مع مراعاة موقعه بعد هاتين الاستعارتين فيقول : «ولله غيب . . . . كما أن له وحده شهادتهما فما أراد من ذلك ، كانت قدرته عليه على الشهادة من الساعة التي تنكرونها استعظاما لها ومن غيرها ، بما فصله لكم من أول السورة إلى هنا من خلق السموات والأرض وما فيهما ...»[2] فكلامه هو الذي أعاننا على تحديد المطلع ، وبيان بداية تفصيله ، مع ملحظ مهم هو أنه لم يقل وما أمر الله إلا كلمح البصر تناسبا مع الوجه الثاني في المراد بقوله : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ من إبقاء الماضي على وضعه وتظهر قوة صلة تشبيه سرعة وقوع الساعة بالمطلع بمقارنة التشبيه بقوله تعالى في سورة القمر ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ (القمر:٥٠) ، واستبصار التركيبين يدل على أن تركيب تشبيه النحل يفيد سرعة الوقوع أبلغ من تشبيه سورة القمر ، وقد تقارب التشبيهان لتقارب افتتاح السورة فيهما ، واللغة تدل على أن قولنا : لمح بصره معناه نظر إلى الشيء ، ولمح ببصره امتد نظره إلى الشيء كأن الباء أكسبت الفعل تراخيا في الوقوع بهذا الفرق الدقيق الذي يتناغى فيه كل تشبيه مع ما افتتحت به السورة في كل كما بيناه في دراسة أخرى[3] .

---

(١) مفاتيح الغيب ٥٩٩/٩ .

(٢) نظم الدرر ٢٢٠/١١ .

(٣) يراجع مادة (لمح) المصباح المنير ، ص٥٥٨، واللسان ٤٠٧٢/٥، وأساس البلاغة ، ص٤١٤، أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٢٧٧ وما بعدها الدكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

ثم انتقل السياق إلى ذكر جملة أخرى من النعم تتقارب في سياقها مع الجملة من النعم المذكورة في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ﴾ (النحل:٤٨) من قوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (النحل:٧٩) مع تناغي التسخير مع آية السجود ولتقاربها مع سياق الامتنان السابق جاء في سياق ذكرها قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (النحل:٨١) وقوله : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل:٨٣) وجاء قوله : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ (النحل:٨٦، ٨٧) كشرح لقوله : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (النحل:٢٧) .

وهكذا تتواصل آيات السورة ، وكلها دائرة في نور المطلع الذي يجمل المقصود ، وفي نهاية السورة تجد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:١٢٠، ١٢١) وهو ظاهر الصلة بسياق النعم ، ونور المطلع لذلك لا تجد كقوله : ﴿ شَاكِرًا ... ﴾ في قصة إبراهيم عليه السلام في الذكر الحكيم مع ملحظ مهم هو أنه أبو الأنبياء .

وخيط آخر حاولنا استبصاره في نور المطلع وسياق النعم فلا كقوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النحل:٢٦) وهو استعارة تمثيلية[1] تصور سرعة وقوع العذاب ، متصلة

(١) يراجع : حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القرطبي البيضاوي ٢/١٧٥، ونصه (وهو استعارة تمثيلية شبه حالهم في أنهم سووا منصوبات ليمكروا بها الأنبياء فجعلها الله ـ تعالى ـ سبب هلاكهم بحال قوم بنوا بنيانهم ، وعمدوه بالأساطين ، فأتى البنيان من تلك الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف).

بالنعم من البنيان والقواعد والسقف بهذه العناصر التي بنت الاستعارة ، وأبان عن سر اختيارها نور المطلع الذي يجمل المقصود تجد نور هذه الاستعارة في قوله : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ . . . ﴾ (النحل:٣٣) وهو مما يرجح أن المراد من الماضي في قوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ حقيقته أي مباديه والآية عند ابن عاشور «استئناف بياني ناشئ عن جملة قد مكر ، لأنها تثير سؤال من يسأل عن إبان حلول العذاب على هؤلاء ، كما حل بالذين من قبلهم فقيل : ما ينظرون إلا أحد أمرين ..»[1] ويلحظ أن قوله : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ (النحل:٣٤) من نور الاستعارة التي تفيد تمام إحاطة العذاب بهم .

كما تجد صداها متعاليا في قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (النحل:٤٥) وقوله : ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ (النحل:٤٦) وما أحال على المطلع وكشف علة قوله : ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ من قوله : ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ (النحل:٤٧) هو تواصل محكم وعجيب وبديع كما تجدها بصداها ونورها ، ولونها وشياتها في المثل أيضا في قوله : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ (النحل:١١٢،١١٣) .

وهو مثل كاشف عن وقوع العذاب ، واصل وقوع العذاب بالنعم كما يتظاهر به مطلع السورة وقد قال ابن عاشور في وجه عطف هذا المثل هو

(١) التحرير والتنوير ١٤/١٤٥ .

(عطف عظة على عظة ، والمعطوف عليها هي جمل الامتنان بنعم الله تعالى عليهم من قوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) ، وهو قول من استبصر السلك الخفي الذي انتظم التراكيب إلى هذه الآية ، وفي تراكيب استعارات السورة وبيانها وصياغتها ما تشيب له النواصي من الدهش عند استكشاف شيء من نور علاقات تراكيبها ومعانيها وسبحان الله العظيم .

وقوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ . . . ﴾ إلى آخر السورة ناظر إلى المطلع الذي ينم عن مجادلة الكافرين ، لاسيما إذا ما استعين على استكشاف ذلك بسبب النزول : ولولا شغلنا بمحاولة الكشف عن العلاقات لاستوقفتنا أسرار تراكيب السورة التي جاءت وفقا للعلاقات والروابط الدقيقة ، والتي تتواصل جميعا في سبيل بيان المقصود الذي أجمله المطلع .

وقد ذكر البقاعي ـ رحمه الله ـ بأن الانتهاء جاء ناظرا في الابتداء في قوله عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ (١٢٨) « فهم في حضرات الرحمن وأنت رأس المتقين المحسنين ، فالله معك ، ومن كان الله معه كان غالبا ، وصفقته رابحة ، وحالته صالحة ، وأمره عال ، وضده في أسوأ الأحوال فلا تستعجلوا قلقا ، كما استعجل الكفار استهزاء تخلقا في التأني والحلم ، بصفة من تنزه عن نقص الاستعجال وتعالى عن ادعاء الكفار والأمثال ، فقد عانق آخرها أولها ، ووافق مقطعها مطلعها »[1] . والحمد لله على ما وفق . .

* * *

(١) نظم الدرر ٢٨٥/١١ .

المبحث الرابع

سورة الأنبياء

ذلك هو اسمها فيما ورد عن النبي ﷺ «بنوا إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول ، وهن من تلادى»[1]. وقد اشتملت آيها على ذكر ستة عشر نبيا ، وقد تضاربت مع سورة الأنعام التي ذكر فيها ثمانية عشر نبيا ، إلا أنها اجتزأت بحلقة من قصة كل نبي في الغالب على العكس من سورة الأنعام ، فقد أجمل ذكر الأنبياء فيها عدا إبراهيم عليه السلام .

ويعظم بيان الخصيصة البيانية لذكر حلقة كل نبي في هذه السورة ، لأن مقتضى استظهار هذه الخصائص استبصار قصص النبيين في الذكر الحكيم كله ، وهو في الاتساع كما ترى ، فحسبنا في هذا المقام الإشارة إلى بعض الخصائص ومحاولة كشف علاقتها بالمطلع .

يبصر ابن الزبير ـ رحمه الله ـ مناسبة الأنبياء لطه مجملا ذكر مناسبة طه لمريم لأن القرآن ـ عنده ـ سياق واحد ـ فيرى أن الأنبياء من جملة التأنيس الذي سبق في (طه) وقد أعانه على استبصار هذه العلاقة ما ختمت به سورة طه ، وهو بين المناسبة بأول الأنبياء يقول ـ رحمه الله ـ «ثم ابتدأت سورة الأنبياء ببقية هذا التأنيس فبين اقتراب الحساب ، ووقوع يوم الفصل المحمود منه ثمرة ما كوبد في ذات الله ... . وقد تضمنت هذه السورة إلى

(١) فتح البارى أخرجه البخارى في كتاب تفسير القرآن ٨/٢٨٩ .

ابتداء قصة ـ إبراهيم عليه السلام من المواعظ والتنبيه على الدلالات وتحريك العباد إلى الاعتبار ... وهو من مقصود السورة وفي قوله : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ﴾ إجمال لما فسره النصف الأخير من هذه السورة من تخليص الرسل (أبصر عبارته فهو يحثنا على استبصار قصص السورة في نور هذه الآية) وتأييدهم الذي تضمنه النصف الأخير من لدن قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ إلى آخر السورة ، وكمال للغرض المتقدم من التأنيس وملائمة ما تضمنته سورة (طه) وتفسير لمجمل قوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ (ثم يكشف لنا عن علاقة تراكيب السورة الخاصة بها ـ فيما قال ـ بالمطلع ، بل يجعل المطلع هو مقتضى اختصاص السورة بتراكيب خاصة) يقول : ولما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ . . . ﴾ وكان واردا في معرض التهديد ، وتكرر في مواضع منها ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ و﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِى . . . ﴾ و﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ . . . ﴾ و﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ و ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ . . . ﴾ و﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ . . . ﴾ و﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ...﴾ و﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ .. ﴾ ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ... ﴾ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ... ﴾ ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ . . . ﴾ إلى ما تخلل هذه الآى من التهديد وشديد الوعيد حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وبين يديها في نظائر هذه السورة ، وقد ختمت بمثل ما به ابتدئت»[1] لله هذا الرجل كم استغرقه البحث والتنظير بين معاني السورة ، وطرائق بيانها في السورة ، وجريانها وطرائق

(١) البرهان لابن الزبير ص١٣١-١٣٣ .

بيانها في القرآن كله حتى قطع بهذه النتيجة ، التي كشفت عن العلاقة البيانية بين تراكيب السورة ، وبين مطلعها؟

وبصيرة ابن الزبير هذه هي التي هدت البقاعي ـ رحمه الله ـ إلى إحكام البيان عن المقصود ، وإحكام البيان عن العلاقات التي جمعت آيات السورة في هذا المقصود .

يقول : رحمه الله ـ «ومقصودها : الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ـ ولو بالموت ـ ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير (ثم تسمع إليه وهو يبين عن علاقة جريان معاني السورة بما قرره) لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها ،وهو من لا يبدل القول لديه ، والدال على ذلك أصح دلالة . فمجموع قصص جماعة ممن ذكر فيها من الأنبياء عليهم السلام ـ ولا تستقل قصة منها استقلالا ظاهرا لجميع ذلك ... . ولا تخلو قصة من قصصهم من دلالة على شيء من ذلك فنسبت إلى الكل»[1] .

ماذا وراء عبارته ـ رحمه الله ـ من الكد والوكد حتى تنورت له هذه العلائق؟ والمقصود عند الشيخ الصعيدي إثبات قرب ما أمروا بتربصه[2] فآخر السورة قطب السورة الذي تدور عليه تراكيبها هو الاستدلال على قرب وقوع الساعة ، ووقوع الساعة والحساب فيها ، والاستدلال على قرب وقوع الساعة غير الإخبار بقرب وقوعها كما جاء في مطلع سورة القمر ، ولهذا المقصود جرت معاني السورة وطرائق بيانها على إلقام الكفار الحجر فيما أنكروا من أمرها المستتبع ما بعدها ، ذلك ما ينبئ به بناء المطلع الذي يمثله قوله تعالى ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**

(١) مصاعد النظر ٢/٢٨٦ .

(٢) ينظر النظم الفني ص١٩٩ .

﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ (الأنبياء:١) وأنت ترى عدة دقائق ظاهرة في هذا التركيب منها أن ذكر الساعة وقع ضمنا ، والتركيب على ما قرروه من مقصودها اقتربت الساعة التي يقع بعدها الإنشار ـ الذي لم يدعه الناس لآلهتهم ـ الذي يقع بعده حساب الناس وهم ... لكن القرآن بإسناد الاقتراب إلى الحساب دل على أن كل ما ذكر من هذه الأمور جاء اقتضاء لذكر الحساب ، وأومأت تراكيب آي هذه الأمور بمعالم لفظية ظاهرة إلى عقدها بذكر الحساب فامتازت ـ لاتصالها بمقصودها ـ عن نظائرها في الذكر الحكيم ، كما نقلناه فيما مضى من كلام ابن الزبير ، وكما أبصرناه في عبارة أبي السعود فيما يأتي من استبصار نور المطلع .

ولما كان بدهيا أنه لا إنذار بعد الساعة ، والقرآن إنذار ـ استحكم لدى الأئمة أن المراد من اقتراب الحساب اقتراب الساعة يقول جار الله : « والمراد اقتراب الساعة وإذا اقتربت الساعة ، فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك ونحوه ـ وَاقْتَرَبَ الوعد الحق »[1] وولَّد أبو السعود نكتة هذه المخالفة في الإسناد للمراد ـ فيما يظن ـ فقال : « وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة ـ مع استتباعها له ، ولسائر ما فيها من الأحوال والأهوال الفظيعة ـ لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم ذلك »[2] مع مراعاة أن الساعة بالموت وبإهلاك الأمم ، وبالساعة الكبرى وكل ما جاء من الآى في هذه الأمور ينساق إلى بيان غفلتهم عن الحساب وإعراضهم كما أبصره أبو السعود .

« والاقتراب مبالغة في القرب ، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة

---

(١) الكشاف ٥٦١/٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦٨/٧ ، وروح المعاني ٣/١٧، ٤ .

مستعملة في تحقق الفعل ، أي اشتد قرب وقوعه بهم»[1] . ويتقابل معه ما في السورة ـ مما اختصت به من نحو قوله : ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (الأنبياء:٣٧) .

والمراد بالناس المشركون فيما يقول ابن عباس ، وكما يفصح عنه ما بعده فيما يقول أبو السعود[2] كما يكشفه بناء آي القرآن بعد المطلع ، وقد أدخل القرآن الكريم الروع في قلوب المشركين بأمور في التركيب ـ مع ضميمة دلالة اقْترب ـ بإضافة الحساب إليهم وباللام التي أكدت هذه الإضافة فيما يقول جار الله[3] وبتقديم (للناس) على الفاعل الذي يدل على «المسارعة إلى إدخال الروعة ، فإن نسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوءهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب»[4] ولوعيهم بدقائق هذه اللغة الشريفة ودلالتها ، أورثوا رعبا بهذا الخبر فيما ترجم القرآن حالهم عند سماعهم إياه ، ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ تأمل مبالغتهم في إخفاء نجواهم ، واجتهادهم في كتمانها ومحاولتهم دفع ماداخلهم من الروع من هذا الخبر ، فيما حاولوا به التخفيف من حدثه بقولهم : ﴿ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٣) أتبصر معي أنهم كانوا على بصيرة من أنه لا يقدر على الإخبار بهذا الخبر إلا من كان قادرا على الإنشار الذي يقع بعده الحساب؟ مع ضميمة أن إنكارهم كان متوجها إلى البعث لا إلى الموت ، فذلك مما لا سبيل إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٨/١٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٦٨/٧ .

(٣) الكشاف ٥٦١/٢ .

(٤) أبو السعود ٦٨/٧ .

إنكاره ، وذلك الذي ينكرونه لم يدعه أحد لإله متخذ ؛ لعل جلاء الحق ووضوحه لديهم ، ثم إعراضهم عنه هو ما وراء وصفهم بالظلم في الآية المذكورة ، مع ضميمة إسرارهم بالنجوى في هذا الموضع الذي لم يقع في غيره ، ويفسر قتادة ـ رضي الله عنه ـ الضمير في أسروا بالمطلع فيقول : « وأسر هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم وهم في غفلة ـ فيما يرويه ابن جرير ـ رحمه الله ـ (والذين ظلموا) عنده إما أن يكون بالخفض على أنه تابع للناس في قوله : ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ** ﴾ والرفع على الاسم الذي في قوله : ﴿ **وَأَسَرُّواْ** . . . ﴾ وقد يحتمل أن يكون رفعا على الابتداء ويكون معناه وأسروا النجوى هم الذين ظلموا ....»[1] وعلى أى الوجوه فهو مما يؤانس ما حاولنا استنباطه .

ودقيقة أخرى مهمة في المطلع بعدما احتمل كل هذه الدلالات وغيرها هي في هذا القيد ، ﴿ **وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ** ﴾ وغير المتعظ لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون غافلا ، وإما أن يكون معرضا ، ومن بدائع الذكر الحكيم اختصاص السورة لاسيما في مطلعها بالجمع بين الأمرين[2] بل بتقييد الإعراض بالغفلة ، وذلك ـ فيما أرى ـ يلوح إلى أن السورة تختص بدلائل وآيات على اقتراب الساعة هي جلية جلاء الشمس في وضح النهار لا ينكر نورها إلا غافل معرض ، وذلك هو الظلم ، وذلك يترجمة ما اختصت به السورة من قوله : ﴿ **وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ** ﴾ (الأنبياء:٩٧) وهذا التركيب ينادي على قوله : ﴿ **ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ** ﴾

---

(١) جامع البيان ٣/١٧ .

(٢) وقد ذكرت الغفلة ثلاث مرات في سورة مريم ٣٩، والقصص ١٥، وق ٢٢ .

وقوله ﴿ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ ﴾ ينادي على قوله ﴿ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ولو قال هاهنا (بل كنا معرضين) لسقط ما بين الآيتين من دلائل وحجج اقتراب الحساب وحسبهم وصف أنفسهم بجريمة الإعراض في آخر السورة ﴿ بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٧)[١] . وفي مقابلة تصدير السورة بذكر الغفلة انتشر لفظ الذكر مقصودا به القرآن غالبا انتشارا غير معهود في سور الذكر الحكيم قاطبة بل وصفت التوراة بأنها ذكر ، وذلك ما لم يقع في سورة أخرى ، ويغريك بقبول هذه اللطيفة أن سورة (ص)[٢] مع تصديرها بلفظ الذكر لم ينتشر فيها هذا الانتشار ، وسورة القمر[٣] كذلك وانتشر في السورة ـ مقابلة لوضوح الآيات أيضا ـ الإعراض انتشارا غير معهود في سور[٤] الذكر الحكيم .

وقد أعقب المطلع بجملة من الكلام تبين وجه اتصافهم[٥] بالحال ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ وفي تراكيب هذه الجمل من الخصائص ما يعقدها بالمطلع ، وقد جاءت تراكيب في قصص النبيين في السورة ناظرة إلى هذه الجمل معرضة بكفار مكة على مقتضى أحوال أقوام المرسلين ، ومقتضى أحوال العرب في آن واحد ، كما سنحاول كشف شيء منه .

---

(١) الآيات : ٢، ٧، ١٠، ٢٤، ٣٤، ٣٦، ٤٢، ٥٠، ٨٤، ١٠٥ .

(٢) الآيات ١، ٨، ٣٢، ٤٩، ٨٧ .

(٣) الآيات ١٧، ٢٢، ٢٥، ٣٢، ٤٠ .

(٤) الآيات من سورة الأنبياء ١، ٢٤، ٣٢، ٤٢ .

(٥) وعلاقة التبيين بالمطلع ظاهرة في كلام الأئمة يغني عن ذكرها الإشارة إليها في مطلعها ، جامع البيان ٣/١٧، وأبو السعود ٦٩/٧، والصاوي على الجلالين ٧١/٣، والتحرير والتنوير ١١/١٧ وغيرهم من الأئمة .

وجاء الحديث المجمل عن المرسلين والهالكين ناظرا إلى هذه الجمل من الآية (٦) إلى (١٥) رادا ما أسر به الظالمون من كفار العرب من البشرية والسحر والافتراء والجنون ، والأكل والموت ، ولظهور هذه العلائق مثلا ذكر البيضاوى أن قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ ﴾ (الأنبياء:٧) «جواب قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم»[١] وفيما ذكر أبو السعود من أن قوله : ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ﴾ (الأنبياء:١٠) «كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقبة القرآن العظيم الذي ذكر في صدر السورة الكريمة إعراض الناس عنه»[٢] وفيما قال ابن عاشور معللا إضافة الذكر إليهم في نفس الآية ـ مع مراعاة اختصاص السورة بإضافة الذكر إلى الكفار من العرب ـ قال في إضافة الضمير «تحقيق لكون القرآن حقا ، وتذكير بما يشتمل عليه من المنافع التي عموا عنها فيما حكى أول السورة بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأۡتِيهِم . . . ﴾ »[٣] .

وقد شاع ذكر إهلاك الأمم في الذكر الحكيم إلا أنك لن ترى كقوله : ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ (الأنبياء:١١) وتناسب المجاز العقلي في قوله : ﴿ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ ﴾ الذي ينبئ بفحش الظلم وشيوعه ـ مع القصم الذي هو أشد الكسر كما تناسب معه تشبيه أهل القرية إثر هذا الفعل مما اختصت به السورة ﴿ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ (الأنبياء:١٥) ولم ينفعهم قولهم حين البأس : ﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٤) ألست تبصر أن في هذه الخصائص تعريضا

---

(١) أنوار التنزيل ٦٧/٢ .

(٢) أبو السعود ٧٣/٧، وروح المعاني ١٤/١٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/١٧ .

بالمشركين؟ بضميمة أنهم وصفوا في المطلع بأنهم في غفلة معرضون وما بعدها من القيود في جمل التبيين ، ثم لا ينفعهم قولهم حين البأس ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٧) كأن وصفهم بالإعراض في المطلع ثم بالظلم هنا يشي بتشارب السياق وهو ناظر إلى المطلع ذى البناء البياني الخاص بما يثيره من التهديد والوعيد ، تلك بصيرة جار الله عند قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا ﴾ (الأنبياء:١١) وقد نور أن الآية «واردة عن غضب شديد ، ومنادية على سخط عظيم ، لأن القصم أفظع الكسر ، وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف القصم»[١] وعبارته ظاهرة في النظر إلى المطلع كما ترى . وبإهلاك الأمم كانت ساعتهم ، ولم ينكر أحد إهلاكهم ، وإنما قد يجرى الإنكار فيمن يسند إليه الإهلاك وفيما يكون بعده .

وفي نور المطلع ـ على ما حاولنا تمثله ـ تبصر اختصاص السورة بهذه الاستعارة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (الأنبياء:١٨) فللحق سلطانه بالفعل حينا كما يفسره اختصاص السورة بالفعل ﴿ قَصَمْنَا ﴾ وبالحجة حينا آخر كما سيأتي ـ فنوره جلي ظاهر لا ينكره إلا غافل معرض على حد ما ذكر المطلع . ويبدو أن هذه العلائق كانت بينة عند جار الله وهو يفسر هذه الاستعارة ـ مع إغماض الطرف عن اعتزاله في بيان المستعار له ـ يقول : «واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله وإهداره ومحقه ، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا ، قذف به على جرم رخو أجوف فدفعه»[٢] ألست ترى

---

(١) الكشاف ٢/٥٦٤ .

(٢) الكشاف ٢/٥٦٥، ٥٦٦ .

مناسبة بين الاستعارة وبين ﴿ قَصَمْنَا ﴾؟ كما أبصر الألوسي ـ رحمه الله ـ فيما قال في هذه الاستعارة «أى يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى»[1].

وماذا تبصر وراء قوله ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ بدل فيقتله أو فيقصمه أو غيرهما من مفردات اللغة ؟ ألا تبصر أن ذلك إشارة إلى أن ما سيرد من البراهين على اقتراب الحساب مما يصيب الدامغ فيأخذ بمخانق صاحب الباطل؟ ألا تبصر أيضا أن هذه الحجج لا تجري إلا بمن أوتي رشده؟ وهو أمر بين في قصة الخليل عليه السلام كما سيأتي ، لأن ما نحاول كشفه الآن له صفة وثيقة بالقصة .

ومن نور المطلع ما تراه في هذه الحجة فالتشفيع على اتخاذ الآلهة . جار في كثير من المواضع إلا أنك لن تجد كهذين القيدين ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ في قوله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٢١) وفي القيد الأول «الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض»[2] وفيه إلماع إلى قصة الخليل مع الأصنام كما سيأتي وفي القيد الثاني رميهم بدعوى اختصاص آلهتهم بالإنشار ، وهذا القيد «هو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع لا محالة»[3].

وقد استشكل جار الله رميهم بهذه الدعوى ، وهم أبعد ما يكونون منها ثم أجاب «الأمر كما ذكرت ، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار ، لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ،

---

(١) روح المعاني ٢٠/١٧ .
(٢) مفاتيح الغيب ٩٤/١١ .
(٣) أبو السعود ٧٧/٧ .

والإنشار من جملة المقدورات»[1] والبناء البياني ـ كما ترى ـ مع تشاربه من فيض الاستعارة الماضية ناظر إلى المطلع ، لاسيما أنه بنى عليه الوحدانية ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ (الأنبياء:٢٢) وعقد كل ذلك بالمطلع ، فالذي توحد في الإنشار توحد في كونه ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣) وهو وحده الذي يمكن أن يتوعد ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾ ألم أذكر لك أن جريان المعاني في كثير من السور يأتي في كل موضع متواصلا مع مقاصدها التي تجملها مطالعها ، فآيات الوحدانية جارية في الذكر الحكيم ، وأنت تراها هاهنا ناظرة إلى المطلع ، ناهلة من فيض الاستعارة بهذا البرهان العقلي الساطع ، حتى الملائكة المقربون عند ادعاء الألوهية ـ تنزهوا عنها ـ في جهنم ، لكنهم عباد مكرمون من خشية ربهم مشفقون لا يصدرون إلا عن أمره ، تدبر قوله ـ سبحانه : ﴿ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٢٩) هم إذن في عداد القائلين ﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

مازال سياق ذكر الإنشار (محل الحساب وموضعه) هو الذي يستحوذ علينا في بيان الآيات انتقل القرآن بعد هذا الحجاج العقلي في إثبات الإنشار لله ، إذ الكل على الإقرار بعدم إثباته لآلهتهم ، فيكون عند عدم إثباته لله غير مثبت لأحد ، مع أن دلائل الكون يتعالى صوتها بحصوله كل آن ، آيات ذكر السموات والأرض شائعة في سياق الذكر الحكيم لكنها جاءت هاهنا في سياق الإنشار ، الناهل من فيض دلالة الاستعارة الناظرة إلى المطلع تأمل ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ ﴾ (الأنبياء:٣٠) وعقد كلا بالمطلع

(١) الكشاف ٢/٥٦٦ .

بقوله : ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٢) ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾.

والذي يعنينا هو ما قاله ابن عاشور وعلى جميع التقادير فالمقصود من ذلك أيضا الاستدلال على أن الذي خلق السموات والأرض وأنشأهما من العدم قادر على أن يخلقه بعد انعدامه[١].

فالآية الكريمة دالة على إنشائهما وبدايتهما ولعلنا نستطيع في هذا النور تفسير اختصاص السورة بقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) التي وقعت في سياق قوله : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ (الأنبياء:٩٧) وقوله : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ (الأنبياء:١٠٣) ومعنى الطي عند المفسرين واللغويين «رد بعض أجزاء الجسم اللين المطلوق على بعضه الآخر ، وأنه نقيض النشر»[٢] ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي نعيدها رتقا كما كانت ، وتزداد بصيرة بنور تشبيه السماء في هذا السياق بمقارنته بنظائره في تشبيهات السماء عند قيام الساعة[٣] وقد حاولناه في دراسة أخرى .

وجاء قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ . . . ﴾ (الأنبياء:٣٤) ناظرا إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٨) وجاءت مسلمة أخرى لا سبيل إلى إنكارها ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأنبياء:٣٥) وهي ساعة كل أحد ، وموقعها من سياق ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ كما ترى ، عقدت بالمطلع ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥) وجاء في هذا السياق قوله : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

---

(١) التحرير والتنوير ٥٥/١٧ .

(٢) البيضاوي ٨٢/٢ ، وبصائر ذوى التمييز ١٩٢/٣، والتحرير والتنوير ١٥٨/١٧، واللسان ٨٧٢٩/٣ ، وأساس البلاغة ، ص ٢٨٧ .

(٣) الآيات في : الرحمن ٣٧ ، المعارج ٨ ، النبأ ١٩ .

﴿ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ (الأنبياء:٤٢) الذي لا نظير له في الذكر الحكيم ، وقد تضمن ما ذكر من آيات الحفظ في مثل قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ﴾ (الأنعام:٦١) وتضمن مع ذلك ما شاع في الذكر الحكيم من آيات الرزق ، وما يجري بين العباد من القضاء الذي هو حفظ للحقوق وتتضمن الحفظ من الشياطين والأفاعي وغير ذلك ، وقد جاءت هذه الآية مهادا لقوله : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٌ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴾ (الأنبياء:٤٣) .

والآية في سياق الإنشار كأني بصدى الذكر الحكيم يقول : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴾ أو يمنعوننا من أخذهم وإنشارهم ـ في تركيب بديع للحجج كما ترى ـ بل إن ما اتخذوهم لا يستطيعون نصر أنفسهم إلا أن يجاروا منا ، تأمل لا يخطئك نور قوله : ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الأنبياء:١٨) ثم تدبر ما يلفتك به النظر إلى أصحاب القرى ﴿ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٌ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٦).

أي كما قال أصحاب القرى الذين قصمناهم ، وموقعها من سياق المطلع والاستعارة على ما بينا ويلح السياق بعد كل هذا ليلفتك إلى المطلع بنور دقيق البيان فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٧)[1] ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾ .

---

(١) وقد ذكرت في آيات الميزان في سور أخرى الأعراف ٨، ٩، والمؤمنون ١٠٢، ١٠٣، والقارعة ٦، ٨ .

ومما تتجلى فيه العلاقة في قصة موسى هاهنا أنك لا تجد كقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأنبياء:٤٨) فقد وصفت التوراة بالفرقان لوقوعها في سياق الميزان ، وسياق الاستعارة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ . . . ﴾ هكذا حجج الله في كتبه جميعا وشبهت التوراة هاهنا بالضياء ، واتصاله بالسياق كما ترى يستبصر ذلك بتنظير تشبيهها بالنور والبصائر والإمام في مواطن أخرى[1] ـ كما حاولناه ـ بفضل منه تعالى ـ في دراسة أخرى ، ومما يتدبر هاهنا وصفها بالذكر في سياق الغفلة ومنه أيضا وصف المنذرين بها بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء:٤٩) وأنت تراه ينظر إلى قوله : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٨) لأنه قول من ﴿ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنبياء:١٩) وتتابع قصص النبيين في نور المطلع وما ساق إليه ، وينبهنا الذكر الحكيم إلى هذا الاستبصار بقوله : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٥٠) .

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ «أفأنتم أيها القوم لهذا الكتاب الذي أنزلناه إلى محمد منكرون وتقولون : هو أضعاث أحلام بل افتراه»[2] بماذا يشير ابن جرير بهذا التعبير الذي لم يعجبه غيره؟ ألم أذكر لك أن الأئمة انتشرت بياناتهم في هذه العلائق ، وأوضح منه وأظهر ، ما ذكره أبو السعود ـ رحمه الله «أي القرآن الكريم أشير إليه بهذا إيذانا بغاية وضوح أمره

---

(١) الأنعام ٩١، وهود ١٧، والأحقاف ١٢، والقصص ٤٣، ويراجع : أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٨٨ وما بعدها ، الدكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ .

(٢) جامع البيان ٢٦/١٧ .

(ذكر) يتذكر به من يذكر ، وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام ، وموافقته لما مر في صدر السورة الكريمة»[1] الأئمة حرروا ما ندَّعي محاولة كشفه ، فالله المستعان على محاولة جمعه والانتفاع به .

لعل مما يثلج الصدر الآن أن تفسير اختصاص قصة إبراهيم هاهنا بقوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (الأنبياء:٥١) في نور قوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الأنبياء:١٨) وهذا القيد (من قبل) يشير إلى ما تلبسناه من أن القرآن سيسوق براهين على الحساب تدفع الكفار بمن أوتي رشده محمد ﷺ بعد الاستعارة التي تلح علينا في آيات السورة ، وكأني بالسياق يقول : لئن أوتيت رشدك فقد أوتيه موسى من قبل (الفرقان) وقد أوتيه من قبلكما إبراهيم ، وهذا الفهم هو الذي يجبرنا حتى نفهمه على وجهه ـ على أن نجعل قصص السورة تحت مرآة ما مضى من السياق ، وهذه ومضات من هذا النور ، ألا ترى أن قول إبراهيم ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ﴾ يوشك أن يدل على أنه يريد أن يقول لهم : (أنتم تلعبون) كما أبان عنه القرآن بردهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٥٥) أبصر كل ذلك في نور قوله ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنبياء:٢) أو أبصر أولهما في نور ثانيهما هكذا أنت تحار في فصم النورين ، الأول اقتضى سياق الثاني على وجه ما من الأسلوب ، والثاني يعرض بالأول ، فسبحان الله! وكل ما نحاول سياقته ناظر إلى سياق هذه الحلقة في المواضع الأخرى من القرآن الكريم ثم تدبر قوله عليه السلام ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ (الأنبياء:٥٦) أي فطرهن بعدما كانتا رتقا ، الخليل إذن يسوق دليل الإنشار تدبر الخليل

(١) تفسير أبي السعود ٨٩/٧ .

لسان الحق ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ (الأنبياء:٥٨) لا يخطئك نور ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الأنبياء:١٨) ولا نور ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ (الأنبياء:١١) تدبر في هذا النور وصفهم إياه بالظلم، ﴿ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٥٩) ثم تدبر سلطان الحق ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (الأنبياء:٦٤) ثم ارتدوا بعد ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ (الأنبياء:٦٥) انقلبوا إذن . تدبر نور قوله ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ .

وما أعجب كلام الأئمة عند التعريض في قوله ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء:٦٣) وهذا باب لا يتغلغل فيه إلا أذهان الراضة من علماء المعاني كما ذكر جار الله ، والذي يعنينا هاهنا هو بيان العلائق تدبر قول جار الله بعدما ذكر أنه لم يقصد نفي الفعل عن نفسه «وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم (ثم تدبر قوله الذي نوره النظر إلى الاستعارة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ ﴾) فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم ...»[1].

والعبارة الأولى ناظرة لقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ . . . ﴾ والثانية ناظرة إلى قوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ذلك ما ذكرت من ذي قبل من أن جار الله كان يتنور هذه العلائق .

تلك مساحة النظر إلى سياق التعريض فيما ألح عليه شيخنا الدكتور الخولي في تحرير طبيعة دلالة التعريض ومنشئها يقول بعد هذه المحاجة «فيم المعركة إذن يا قوم؟ إن القضية كلها بنيت على أساس واحد إذا اهتز تداعت كلها بأصولها وفروعها .

---

(١) الكشاف ٥٧٧/٢ .

بنيت على أساس أن الأصنام التي اعتدى عليها آلهة ، وقد تهدم هذا الأساس بشهادتكم أنتم أنها عاجزة أن تقول فضلا عن أن تفعل شيئا (تدبر هو ينظر إلى قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم ... ﴾ ثم يقول) قلت : إن دلالات اللفظ على تنوعها تتحول في أسلوب التعريض إلى ذرائع ووسائل لتوليد المعنى التعريضي ، وهذا بدوره يصبح ذريعة ووسيلة لتحقيق الغرض المسوق له الكلام»[1] .

تدبر قولهم : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ (الأنبياء:٦٨) وكيف ينصر العابد المعبود يالَلَّهِ لهذه الغفلة غفلة كفار قوم الخليل وقوم النبي ﷺ (أجمعين) .

ولأن قصص النبيين وقع في ضمن السياق الوارد فيه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنبياء:٩) كما مضى في كلام ابن الزبير ، تكرر ذكر النجاة تكرارا غير معهود في الذكر الحكيم[2] مع القصص ولا في الأعراف ولا في هود[3] .

وقصة داود وسليمان عليهما السلام ذكرت في مواضع أخرى إلا أن قصة الحكومة التي جاءت هاهنا لم تقع في أى من مواضع ورود قصصهما ، وألحظ أن قوله : «نَفَشَتْ» لم يقع في أي من المواضع إلا هنا دون القرآن كله ـ كما أن لفظ ﴿ يَكْلَؤُكُم ﴾ لم يقع إلا هنا ومعنى (نَفَشَ) كما قال الراغب «ونفش الغنم انتشارها ، والنفش بالفتح الغنم المنتشر قال تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ والإبل النوافش المترددة ليلا في المرعى بلا راع»[4].

---

(١) التعريض في القرآن الكريم ص٣٧، يراجع الفصل بأكمله من ص١٩ وما بعدها .

(٢) الأنبياء ٩، ٧١، ٧٤، ٧٦، ٨٨ .

(٣) الأعراف ٦٤، ٧٢، ٨٤ ، وهود ٥٨، ٦٦، ٩٤ .

(٤) المفردات ص٥٠٢ .

كأن القصة فيما أرى ـ جاءت في نور قوله ﴿ **قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ** ﴾ (الأنبياء:٤٢) بهذا القيد ، وبتقديم الليل ، لدفع ما يظن من أن حقوقهم فيما بينهم تحفظ بحكوماتهم وأقضياتهم ، فأبان النظم أن ذلك من الله كما يدل قوله ﴿ **فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ** ﴾ (الأنبياء:٧٩) بعد قوله : ﴿ **وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ** ﴾ (الأنبياء:٧٨) وتعاقب الحكمين يبين تفاوت الإجراء بين الحافظين للحقوق ، بل إن ما يحفظهم من البأس إنما هو من إلهام الله ﴿ **وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ** ﴾ (الأنبياء:٨٠) وأنت تبصر في سياق الآية التي ذكرناها قوله : ﴿ **وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ** ﴾ (الأنبياء:٨٢) ﴿ **قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم** . . . ﴾ إذن لا يمنعه أحد من الإنشار ولا من الحساب ﴿ **لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ** ﴾ (الأنبياء:٢٣) .

وهكذا ينساق الكلام انسياقا في المطلع الذي جمل المقصود ، ولا تجد كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ (الأنبياء:٩٨) وما بعدها ، وهي ناظرة إلى قوله ﴿ **أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا** ﴾ (الأنبياء:٤٣) بسياقها يقول ابن جرير عند هذه الآية (الأنبياء:٩٨) « يقول ـ تعالى ذكره ـ لهؤلاء المشركين الذين وصف ضعفهم أنهم ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون وهم مشركو قريش . . . . »[1] .

وهو ناظر بهذا التركيب إلى المطلع كما ترى من بيانه .

---

(١) جامع البيان ١٧/٧٥ .

وجاءت الآيات ناظرة إلى المطلع فقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) ناظر ـ كما بينا ـ إلى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ (الأنبياء:٣٠) بسياقه إلى المطلع ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) ناظر إلى قوله : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾ (الأنبياء:٤٤) بسياقه إلى المطلع ، وترى قوله : ﴿ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ ﴾ (الأنبياء:١٠٩ ، ١١٠) في من نور قوله ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنبياء:٤) وقوله : ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ﴾ (الأنبياء:٣) وقوله : ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ . . . ﴾ ينظر إلى قولهم : ﴿ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ ﴾ (الأنبياء:٣) .

والحمد لله على ما وفق .

* * *

المبحث الخامس

سورة المؤمنون

يتفق كثير من السالفين والخالفين ممن عنوا باستكشاف المناسبات بين السور على أن سورة (المؤمنون) جاءت تفصيلا لقوله تعالى : في سورة الحج ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) يقول ابن الزبير : ـ رحمه الله ـ بعد بيان أن المؤمن قد استشرف سؤالاً لتفصيل ما أمر به من العبادة المستوجبة الفلاح في السورة الماضية ـ « فقيل له : المفلح من التزم كذا وكذا ، وذكر له سبعة أضرب من العبادة هي : أصول لما وراءها ومستتبعة سائر التكاليف ... وأتبعت هذه الضروب بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا ... وكأن قد قيل : إنما كمل خلقك وخروجك إلى الدنيا بعد هذه التقلبات السبعة ، وإنما تتخلص في دنياك بالتزام العبادات السبع وقد وقع عقب هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ ولعل ذلك مما يقرر هذا الاعتبار »[1].

وكان وضوح هذه العلاقة بين السورتين ـ شأن السور قاطبة ـ واسم السورة هادي البقاعي إلى استكشاف مقصود السورة الذي تدور عليه دقائق

(١) البرهان لابن الزبير ص١٣٥، وقد تابعه في بيان هذه المناسبة السيوطي ، والشيخ عبد المتعال الصعيدي من المحدثين يراجع : تناسق الدرر ص١١٨، والنظم الفني في القرآن ص٢٠٨ .

تراكيبها والذي يجمله المطلع في قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون:١) بما تفيده قد من التحقيق لاسيما بدخولها على الماضي ، وأحكام عبارته في الدلالة على المقصود فقال : ـ رحمه الله ـ « ومقصودها : اختصاص المؤمنين بالفلاح ، واسمها واضح الدلالة على ذلك »[1].

وقد سبقه الشاطبي ـ رحمه الله ـ (ت : ٧٩٠ هـ) إلى تناول سورة (المؤمنون) بتبيان دورانها على غرض واحد ، وإقامة العلل في دقائق الفروق على هذا الغرض بما يعطي نموذجا لدراسة السورة القرآنية ، نحاول في كل ما مضى استكشاف آفاقه ولولا أن للنفس شغفا ، بالبحث عن أصول الأفكار وتتبعها ـ بارقاتٍ ولُمَعًا ومعايشتها خواطر في عقول الأمة حتى تخلقت ولائد غالبات في تراث أعيان علماء الأمة ، لولا ذلك ولولا أن النفس تأبى ـ طمعا في فضل الله ورغبة في عطائه ـ إلا استشراف نور علائق التراكيب في سور القرآن قاطبة ، لولا كل ذلك لكان فيما وضعه أبو إسحاق ـ رحمه الله ـ كفاية في تقرير المنهج في درس السورة القرآنية ، ولخطر كلامه في هذا الموضع ، أورد نصه كاملا ، وأجعل ما أحاول تفهمه منه حاشية ـ دون اقتضاب نصه أو تدخل فيه ـ فالله المستعان يقول أبو إسحاق[2] ـ رحمه الله تعالى ـ :

---

(١) مصاعد النظر ٣٠٣/٢ .

(٢) وهذا الكلام هو الذي استحث العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في تناول سور القرآن بهذه الطريقة ، وتناول سورة البقرة في كتابه النبأ العظيم وسورتي يونس وهو في موضع آخر على وجه معجب جدا كما يعرف أهل العلم ، وبه ـ رحمه الله ـ دللنا على قراءة (الموافقات في أصول الشريعة) .

« وسورة المؤمنين نازلة في قضية واحدة ، وإن اشتملت على معان كثيرة فإنها من المكيات ، وغالب المكي[1] أنه مقرر لثلاثة معان ، وأصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى .

أحدها : تقرير الوحدانية لله الحق ، غير أنه يأتي على وجوه ، كنفي الشريك بإطلاق ، أو نفيه بقيد ما ادعاه الكفار في وقائع مختلفة من كونه مقربا إلى الله زلفى ، أو كونه ولدا ، أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة .

---

(١) تدبر كيف كانت أساليب القرآن المكي مثل صفحة معروضة في عقل الرجل ، بمفرداتها ودقائق فروق تراكيبها ، ووجوه جريان معانيها ، وكيف اتسعت وجوه جريان هذه الأصول الثلاثة ، وتباعد كل وجه بدقائقه من هيئات المباني وأنساق المعاني لينادي على اختصاصه بسياق دون نظائره ، وكيف تقاربت هذه الوجوه جميعا ، بعد هذه المفارقات ـ لتتماسك بجذر واحد هو الدعاء إلى عبادة الله تعالى ، فيوضع كل بيقين تحت قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في أم القرآن كما قال سيدى رسول الله ﷺ وفداه أبي وأمي ونفسي وعيني ـ وكما ألمع إليه الشاطبي ـ رحمه الله ـ وقد فرق ـ رحمه الله ـ بين ما يأتي تابعا وما يأتي أصليا في القرآن المكي ، ولا ريب أن الذي يأتي تابعا يأتي على وجه من الأسلوب ، كذلك الوجه الذي جاء عليه الأصلي ، وهو شائع في تراث الأمة ، فيما حاولنا استنباطه فيما مضى ـ وهو ما يقتضينا استقراء أساليب هذه المعاني في سور الذكر الحكيم قاطبة ، لاستشراف الخصيصة الأسلوبية لمساقها في كل سورة ثم استشراف علائق الأنساب بين هذه المعاني ، وبين المعاني الأصلية التي جاءت أما لها ، ثم استشراف العلائق بين هذه المعاني جميعا ، وبين قضية السورة التي يجملها المطلع فيما حاولناه بكلام السلف ، والأمر كما ترى من الكد والعناء بما يجعلنا نعتذر عمن قالوا بتعدد أغراض السورة وقضاياها .

الثاني : تقرير النبوة للنبي محمد ﷺ وأنه رسول الله إليهم جميعا ، صادق فيما جاء به من عند الله ، إلا أنه وارد على وجوه أيضا ، كإثبات كونه رسولا حقا ، ونفي ما ادعوه عليه من أنه كاذب أو ساحر أو مجنون أو يعلمه بشر ، وما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم .

الثالث : إثبات أمر البعث والدار الآخرة ، وأنه لا ريب فيه بالأدلة الواضحة ، والرد على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به ، فرد بكل وجه يلزم الحجة ، ويبكت الخصم ، ويوضح الأمر .

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عادة الأمر ، وما ظهر ببادي الرأي خروجه عنها ، فراجع إليها في محصول الأمر ويتبع ذلك الترغيب والترهيب والأمثال والقصص ، وذكر الجنة والنار ووصف يوم القيامة وأشباه ذلك .

فإذا تقرر هذا ، وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين ـ مثلا ـ وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه ، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة ، التي هي المدخل للمعنيين الباقيين ، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ، ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم ـ إن جاءت ـ فكانت السورة تبين وصف البشرية ، وما تنازعوا فيه منها ، وبأى وجه تكون على أكمل وجوهها ، حتى تستحق الاصطفاء والاحتباء من الله تعالى[1] .

---

(١) إنما تكشفت للشيخ هذه الخصيصة ، باستقرائه وجوه أساليب إنكار النبوة في الذكر الحكيم ، وأن إنكارهم لها كان على وجه الترفع ، لتساويهم والنبيين في البشرية،وهو ما يدلنا على أن الخطاب في السورة جار في مواجهة المستكبرين، متصل بإنكار النبوة ، كاشف عن وجه إنكارهم لها ، وأن ما جاء من آيات القصص وآيات العذاب ، وآيات الوحدانية ماض على هذا النسق ، متقابل كل ذلك مع وصف المؤمنين الخاضعين المتواضعين بالفلاح في المطلع ، والذي==

==هو مقصود السورة ، ولم تشتغل السورة بالحديث عن فلاحهم كثيرا ، وإنما اشتغلت ببيان خسارة أضدادهم من المستكبرين ، وهو إثبات لفلاحهم باللزوم .
وقد ذكر الاستكبار وداعيه في السورة في أربعة مواضع ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢٤) ، ولن تجد كقوله : ﴿ يُرِيدُ ... ﴾ في قصة نوح ﷺ في الذكر الحكيم وهي تعقد أسلوب القصة هاهنا بأسلوب المطلع بعلاقة التقابل والتضاد كما ترى ، وكذا قوله : ﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، وأتت جملة جواب القسم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ ، لتنادي على علاقتها بالمطلع ، مع مراعاة أنه قول المستكبرين ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (٣٣) ، مع مراعاة أن السورة ـ لاسيما مطلعها ـ اختصت بتقييد الخشوع بقوله : (في صلاتهم) ليدل على غاية التواضع الذي يقابله غاية الترفع في السورة ، ولن تجد كقوله تعالى ـ في قصة موسى : واستغراقها لكثير من القرآن على ما تعرف ـ ﴿ . . . فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ، وتميمة التراكيب كما ترى تشي باشتغال قصص السورة بمقالات المستكبرين وهو ما يجعلنا نؤمن بيقين أن المراد بـ (الملأ) في السورة الأشراف ، ولئن شاع في القرآن ذكر إنكار الأمم لاجتماع الرسالة والبشرية ، فلن تراه غالبا غلبته هاهنا ، ولن ترى كهذه القيود التي تنادي على تفرد مساق قصص السورة بهذه الخصيصة ، ولئن جاءت في بعض المواضع ، فلن تجدها بهذه الغلبة ولا بهذا التصريح ، ثم أجمع كل ذلك بقول من لعنه الله ـ فيما حكى ربنا ـ ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٣٣) ، بعد قوله ـ جل وعز ـ للملائكة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٢٨) ، الحجر وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ (ص ٧١) .
راجع لاستبصار هذه اللطيفة ، الأنعام ٩١، هود ٢٧، إبراهيم ١٠، ١١، الإسراء ٩٣، ٩٤، الكهف ١١٠، الأنبياء ٣، ٣٤، الشعراء ١٥٤، ١٨١، يس ١٥، فصلت ٦، القمر ٢٤، المدثر ٢٥، التغابن ٦ .

فافتتحت السورة بثلاث جمل إحداها ـ وهى الآكد فى[1] المقام ـ بيان الأوصاف المكتسبة للعبد ، التي إذا اتصف بها ، رفعه الله وأكرمه ، وذلك قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ الآيات من (١-١١) .

الثانية : بيان أصل التكوين للإنسان ، وتطويره الذي حصل له ، جاريا على مجاري الاعتبار ، والاختبار بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على من هذا حاله سبيلا (الآيات من ١٢-١٦) .

الثالثة : بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به في التربية والرفق ، والإعانة على إقامة الحياة ، وأن ذلك له بتسخير السموات والأرض وما بينهما ، وكفى بهذا تشريفا وتكريما .

ثم ذكرت قصص من تقدم مع أنبيائهم واستهزائهم بهم بأمور منها ، كونهم من البشر ، ففي قصة نوح مع قومه قولهم : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ﴾ ثم أجمل ذكر قوم آخرين ، أرسل فيهم رسولا منهم ، أى من البشر لا من[2] الملائكة فقالوا : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

---

(١) ليس المراد الجملة النحوية ، وإنما هي الجملة من الكلام المتواصلة والمتظاهرة على غرض واحد ، وقوله : هي الآكد في المقام ينبهنا إلى أن كل ما جاء في السورة لأجلها ، وقوله ـ رفعه الله وأكرمه ـ إلاحة إلى سياق المستكبرين على ما عرفت ، وبيان واضح في تحديد المقصود الذي أبصره البقاعى بعد .

(٢) يلحظ أنه يلمع بذلك إلى اختصاص السورة بهذا الأسلوب ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ (٣٢) والعجب العاجب في هذا الأسلوب أنه لم يأت إلا في موضعين من فسطاط القرآن مرادا به النبي ﷺ أولهما دعوة الخليل ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (١٢٩) وثانيهما مخاطبة للمؤمنين ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ ﴾ (١٥١) بمن التي هي لبيان الجنس ، وهو أظهر في النص على بشرية الرسل==

﴿ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا . . . ﴾ (المؤمنون:٤٤) فقوله : ﴿ رَّسُولُهَا ﴾ مشير إلى أن المراد رسولها الذي تعرفه منها[1] .

ثم ذكر موسى وهارون ، ورد فرعون وملئه بقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (المؤمنون:٤٧) .

==من الإضافة . وقد شاع في الذكر الحكيم إضافة ضمائر الأقوام إلى الرسل . راجع : الأعراف ١٠١، التوبة ٧٠، يونس ١٣، ٧٤، إبراهيم ٩، ١١، ١٣، الروم ٩، ٤٧، فاطر ٢٥، غافر ٢٢، ٥٠، ٨٣، التغابن ٦ .

وقد علل البقاعي لاختصاص السورة به فقال : « ولما كان المقصود الإبلاغ في التسلية عدى الفعل بـ (في) دلالة على أنه عمهم بالإبلاغ ، كما يعم المظروف الظرف ، حتى لم ندع واحدا منهم إلا أبلغ في أمره »[1] مع ضميمة ما ذكرنا ، في (من) ، ولا ريب أن الإبلاغ في التسلية كما قال البقاعي يعني في دائرة مواجهة المستكبرين ، ولاحظ أن تميمة أساليب القصص هنا تعرض بكفار العرب المستكبرين ، كما يظهر من سياق السورة الثاني ، وبوسعك أن تفسر اختصاص السورة بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ (٦٤) وقوله : ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٦٧) بوضعه بإزاء قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣٣) ومقابلتهما بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (١ ، ٢) .

(١) لاحظ أنه يفتح لنا أن نفسر اختصاص السورة بقوله في كفار العرب ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ (٦٩) وهو ما يجعلنا بيقين نضع قوله في كفار العرب المستكبرين ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (٧٠) بإزاء قوله : فيما حكى عن قوم نوح ـ بما لا نظير له في قصته من الذكر الحكيم ـ ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٢٥) وسبب هذه المقولات جميعا الاستكبار والأمر على ما عرفت من التقابل بين هذا السياق والمطلع .

هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية ، تسلية لمحمد ﷺ ثم بين أن وصف البشرية للأنبياء لا غض فيه ، وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر يأكلون ويشربون كجميع الناس ، والاختصاص أمر آخر من الله تعالى ـ فقال : ـ بعد تقرير رسالة موسى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون:٥٠) ، ثم قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[1] (المؤمنون:٥١) .

---

(١) مع مراعاة أن هذا التركيب لم يقع في غير هذه السورة ، وسر وضعه عقب قصص النبيين ، تعميم أن دأب الرسل جميعا الطعام والشراب ، وقد فرق تاج القراء بين ما هنا وبين ما في الأنبياء ناظرا إلى مطلع السورة ـ فيما أرى ـ فقال : (قوله : (فاعبدون) (وتقطعوا) (الأنبياء ٩٢ ، ٩٣) وفي المؤمنين (فاتقون) (فتقطعوا) ٥٢ ، ٥٣ ، لأن الخطاب في هذه السورة (الأنبياء) الكفار ، فأمرهم بالعبادة التي هي التوحيد ، وتقطعوا بالواو لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، ومن جملة خطاب المؤمنين فمعناه داوموا على الطاعة ، وفي المؤمنين الخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين بدليل قوله : (أيها الرسل) والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى (فتقطعوا) أي ظهر منهم التقطع بعد هذا القول)[1] ولا ريب أنه ناظر إلى مطلع كل سورة في هذا التعليل ، وأصرح منه قول البقاعي ، (ولما كان الخطاب في هذه السورة كلها للخلص من الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين ، قال : ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ بخلاف ما في سورة الأنبياء المصدرة بالناس ، فإن مطلق العبارة أولى بدعوتها[2] « ويؤيده أنه قال في الأنبياء ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ أي للحساب كما جاء في المطلع ، وأنه قال هنا : ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ كاشفا عن إعجاب كل حزب بما لديه » « أي فرحون معجبون به لا يرون أن الحق سواه »[3] وسياقه على ما عرفت .

أي هذا من نعم الله عليكم ، والعمل الصالح شكر تلك النعم ، ومشرف للعامل به ، فهو الذي يوجب التخصيص ، لا الأعمال السيئة ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ ﴾ (المؤمنون:٥٢) إشارة إلى التماثل بينهم ، وأنهم جميعا مصطفون من البشر .

ثم ختم هذا المعنى بنحو مما به بدأ فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧) إلى قوله : ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٦١)، وإذا تؤمل هذا النمط من أول السورة إلى هنا فهم أن ما ذكر من المعنى هو المقصود ، ومضافا إلى المعنى الآخر[١] ، وهو أنهم إنما قالوا ذلك ، وغضوا من الرسل بوصف البشرية ، استكبارا من أشرافهم ، وعتوا على الله ورسوله ، فإن الجملة الأولى من أول السورة تشعر بخلاف الاستكبار ، وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة .

والجملة الثانية مؤذنة بأن الإنسان منقول في أطوار العدم ، وغاية الضعف فإن التارات السبع أتت عليه ، وهي كلها ضعف إلى ضعف وأصله العدم ، فلا يليق بمن هذه صفته الاستكبار[٢] .

---

(١) إنه يكشف لنا عن علاقة النسب التي بين قصص النبيين ، وبين المطلع الذي يجمل المقصود ، ودله على ذلك تعقيب قصص النبيين بنحو ما بدأت به السورة وذلك عنده ظاهر من تأمل نمط الأسلوب ، وهو يدلنا على أن قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ ﴾ (٥٧) الذي هو من خصائص السورة ، موضوع بإزاء المطلع الذي هو من خصائص السورة أيضا ، وأن التراكيب التي بينهما تتشارب منهما ، وهو ما يجعلنا نقول : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ أي ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (٦٠) فعبادة المفلحين على الرجاء والخوف ، في تقابل ظاهر مع المستكبرين .

(٢) الرجل يكشف لنا عن اختلاف الدلالات الاستتباعية للآيات المتوافقة في المعنى لاختلاف سياقاتها ، وأنت قريب عهد بسياق نفس الآية في ذكر الساعة ، ==

والجملة الثالثة مشعرة بالاحتياج إلى تلك الأشياء ، والافتقار إليها لولا خلقها لم يكن للإنسان بقاء ، بحكم العادة الجارية ، فلا يليق بالفقير الاستكبار على من هو مثله في النشأة والخلق[1] .

==وكيف كانت هناك دليلا أصليا على البعث متشاربا من سياق حول الساعة ، وهى هاهنا دليل على الضعف في سياق المستكبرين المتقابل مع سياق المتواضعين ، وكانت دلالتها على البعث هاهنا دلالة فرعية ، وهيئة التراكيب في الموضعين دالة على هذه الفروق الدقيقة ، فقد قدم للآية في الحج بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ (الحج:٥) ، ووقع بعدها في (المؤمنون) قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦ ﴾ (١٥ ، ١٦) ، كأن الذكر الحكيم يضع المعالم الدالة على دقة الفروق بين هذه الدلالات ، فلله در الشاطبى .

(١) لست أبصر ما في الأسلوب من الإشعار بالحاجة والفاقة ، واستبصار هذا الوجه ولا ريب أن أبا إسحق أبصره ـ يستوجب النظر في آيات الإنعام التي من هذا الباب في سور الذكر الحكيم قاطبة ، ولعل هذا الإشعار جاء مما اختصت به آيات النعم هاهنا بتكرار قوله : ﴿ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ (١٩ ، ٢١) عقب ذكرها ، وما اختص به الأسلوب من قوله : ﴿ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ﴾ (٢٠) ، ولم يكثر في سورة أخرى في مثل هذه النعم كثرته[1] هنا ـ ولعل مما يرشح لذلك أن المستكبرين عابوا على بشرية النبيين بافتقارهم إلى الأكل والشرب كافتقار أنفسهم لذلك ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾ (٣٣) لاسيما أنهم عللوا لذلك بقولهم : ﴿ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (٣٤) وكأنهم يشيرون إلى أن سبب الخسارة هو اتباعهم من لا يغنيهم لأنهم مفتقرون إلى الأكل والشرب ، مظاهر الترف وسماته عندهم وهل يستقيم ترشيح هذا الاستنباط بأنه علق كل هذه النعم على الماء الذي أسكنه في الأرض ، فأومأ ـ مهددا ـ بإذهابه ، وبذهابه يذهب ما هم فيه من الترف والنعيم من شدة الحاجة وعظم الفاقة ، كل ذلك فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (١٨) وهو (من أوقع النكرات وأحزها للمفصل ،==

فهذا كله كالتنكيت عليهم والله أعلم ، ثم ذكر القصص في قوم نوح ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ والملأ هم الأشراف كذلك فيمن عندهم ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ . . . ﴾ وفي قصة موسى ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا . . . ﴾ ومثل هذا الوصف يدل على أنهم لشرفهم في قومهم قالوا هذا الكلام .

ثم قوله : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (المؤمنون:٥٤) إلى قوله : ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٦) رجوع إلى وصف أشراف قريش ، وأنهم إنما تشرفوا بالمال والبنين ، فرد عليهم بأن الذي يجب له الشرف من كان على هذا الوصف ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون:٥٧) ثم رجعت الآيات إلى وصفهم في ترفهم ، وحال مآلهم ، وذكر النعم عليهم ، والبراهين على صحة النبوة ، وأن ما قال عن الله حق من إثبات الوحدانية ، ونفى الشريك وأمور الآخرة للمطيعين والعاصين[1] حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين .

==والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعايا عليه شيء إذا أراده ، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ (الملك:٣٠) فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر) ، الكشاف ٢٨/٣.

وبقوله إنك تجد صداه فيما اختصت به السورة بعد من قوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ (٩٥) في تهديد مترفي مكة من الكفار .

(١) ويبصر كل ذلك في نور السياق الذي شرحه ـ رحمه الله ـ وقد وضع القرآن معالم دالة على ذلك .

فهذا النظر إذا اعتبر كليا في السورة[1] وجد على أتم من هذا الوصف لكن على منهاجه وطريقه ، ومن أراد الاختبار في سائر سور القرآن ،

(١) وهو يشير إلى أن كل تراكيب السورة تتواصل وتتظاهر جميعا على غرضها ، الذي يجمله مطلعها وقد بين رحمه الله . أنها الطريقة في فهم القرآن رحم الله أبا إسحق ، ومن يطيق ما أطاق ؟ ثم أنجبت الأمة بعد حبرا آخر ـ وما أمة سيدنا محمد بعقيم كما أخبر فيما بلغنا ـ جاء البقاعى بعد ، ليحدد بكل دقة لكل سورة من القرآن مقصودها الذي تدور عليه تراكيبها أفرز في كل سورة سطرا أو أسطرا ، هي لآلئ من البيان توارى وراءها صفحات من البحث والكد والعناء ، يدق فهمها ، ويستغلق تبيانها(*).

واستقام المنهج بهذا الكتاب الذي أفرز تراث الأمة من لدن قول النبي ﷺ في فاتحة الكتاب ، وتناثر بعد في بعض أقوال ابن عباس ، ومحمد بن جرير والزمخشري ، والفخر الرازي وأبي حيان وغيرهم واتسع القول على يد ابن الزبير بكتابه البرهان الذي أراد به الكشف عن الأنساب بين السور ، فكان يسوقه ذلك إلى تحديد بعض مقاصد السور ، ثم اعتصر الشاطبي كل ذلك ـ وهو غرناطي ثم أندلسى كابن الزبير ـ وعرضه على سورة (المؤمنون) عرضا موجزا لم يتناول كل السورة على ما عرفت ، ثم جاء البقاعي بعد كل ذلك مستجيبا لرغبة الشاطبى فحدد مقصود كل سورة ، فكانت أساس لبنات هذا المنهج ، وبقي على عاتق طلاب علم البلاغة تلقفها ، وعرضها على سور القرآن لاستبيان صحتها من خطئها بدرس الأساليب وعلائق الأنساب بينها في السورة ودرجات هذه العلائق ، وذلك من أرفع الفقه على حد ما بين شيخنا الدكتور أبو موسى(**).

(*) هو كتابه (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور) وغفر الله لمحقق هذا الكتاب الدكتور عبد السميع محمد حسنين فقد رصد أسفل هذه اللآلئ ـ الذي أغفله عن فقهها عاجل البصر وباده النظر ـ وليس له من هم إلا تخطئة كل قول ليس من ولائد البقاعي وحده وإنما هو عصارة عقول أعيان الأئمة ، ثم ينقل==

فالباب مفتوح والتوفيق بيد الله ، فسورة المؤمنين قصة واحدة في شيء واحد ، وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون ، فإن ذلك تسلية لمحمد ﷺ وتثبيت لفؤاده ، لما كان يلقى من عناد الكفار ، وتكذيبهم له على أنواع مختلفة ، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله ، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة ، بحسب اختلاف الأحوال ، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته ، وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى في النظر في القرآن ، لمن أراد فهم القرآن والله المستعان»(١).

ولنعد إلى ما كنا فيه ـ بعد ما ساقنا إليه قول الشاطبي ـ وقد بينا بحاشيتنا على كلام الشاطبي بعض العلائق ، ولعلك تلمح أن القرآن يحيلك على فقه التراكيب في نور ما مضى من السياق أرأيت إلى قوله : ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (المؤمنون:٨١) ألا تراه ملفتا أبصارنا إلى ما مضى من القصص ، فكان ذلك ملزما لنا أن نضع قول كفار العرب ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢ المؤمنون:) ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٨٣) بإزاء قول السابقين ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا

== كلمات عن صاحب الظلال في تحديد موضوع السورة ـ يزعم أنها الصواب ـ ووالله ما حرره آباؤنا هم غافلون ، وإنما الأمر من الفقه والعنت على ما رأيت في كلامهم رحمهم الله أجمعين ، وغفر لنا وله .

(**) كان ذلك مما حظي به كاتب هذه السطور عند تعليقه على ما أبصرناه في سورة النحل في الجزء الذي راجعه ـ رضى الله عنه ـ من هذا البحث بما لا أحب أن لي به حمر النعم ، ونسأل الله القبول .

(١) الموافقات ٤١٦/٣ وما بعدها .

﴿ أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ ﴾ (المؤمنون:٣٥ ، ٣٦) وكل وارد ، على وجه الاستكبار المعقب الخسران المتقابل مع التواضع المعقب الفلاح .

ثم أبان القرآن عن استكبار كفار مكة بما لم يقع مجتمعا في سورة أخرى ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ (المؤمنون:٨٤) إلى قوله : ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون:٨٩) وآيات نفي الشريك في الاتساع في القرآن على ما تعرف إلا أنك لن تجد كقوله : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (المؤمنون:٩١) أليس ذلك ما يترجم الفساد الذي يترتب على اتباع هواهم في سياق المترفين ﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون:٧٠، ٧١) ماذا تبصر في اختصاص آية نفي الشريك بقوله : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾؟ «أي لغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ، من تمايز الممالك ومن التغالب»[1] .

ألا تراه إلاحة إلى حالهم ، وتعريضا بما هم عليه من التعالي على بعض ، وكأني بالقرآن يقول : أي كما يتعالى بعضكم على بعض أيها المترفون .

وآيات نفخ الصور في سور كثيرة إلا أنك لن تجد كقوله : ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠١) قال ابن عباس : رحمه الله «لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا ولا يتساءلون

(١) غرائب القرآن ٣٠/١٨، وفيما قال أبو حيان من قبل البحر المحيط ٤١٩/٦.

فيها كما يتساءلون في الدنيا»[1] أرأيت؟ ابن عباس يفسر الآية بالسياق الذي صال فيه الشاطبي ومن بعده من علماء الأمة : وكذا ابن مسعود فيما روى أبو حيان في قوله : «فلهول المطلع اشتغل كل امرئ بنفسه ، فانقطعت الوسائل وارتفع التفاخر والتعاون بالأنساب»[2] .

ولن تجد كقوله : ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٠) الذي ينبئ بما في القبر من عذاب والذي يتقابل مع ما ظنه المترفون ، من عدم العذاب أو النعيم فيه ، بل وحملهم طول ما أهلك آباؤهم ولم يروا بعثا لأحدهم ـ حملهم على استبعاد البعث حتى قال أحدهم :

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ ... حديثُ خُرافَةٍ يا أمَّ عَمْرِو

ألا تراه مقابلا لقول كفار العرب ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٨٣) وقد قدم ﴿ نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا ﴾ على اسم الإشارة لأن الغرض هو حكاية مقالة الآباء والتشبث بها كما دل عليه قوله : ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (المؤمنون:٨١) وذلك على عكس ما في سورة النمل كما أبصر بعض أهل العلم[3] من قول الزمخشري في الفرق بين الآيتين (التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وأن الكلام إنما سيق لأجله) ومقالة آبائهم أدل في استبعاد البعث وظن الراحة في القبور فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (المؤمنون:٣٦) ، وكل في سياق الاستكبار المتقابل مع التواضع .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٦٨٥ .

(٢) البحر المحيط ٦/٤٢١، والسيوطى ٣/٢٥ بحاشية الصاوى .

(٣) الكشاف ٣/١٥٨، وتفسير سورة المؤمنون ص١١١ بتصرف الدكتور بسيونى فيود .

ويفسر في نور هذا السياق اختصاص السورة بما يصيب استكبار المترفين من العذاب على وجوههم مناط تكبرهم من قوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٤) وقد وضع القرآن معلما ملفتا إلى أنه عذاب المترفين بقوله بعد : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٥) والذي يلفتنا إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ (المؤمنون:٦٦،٦٧) .

ويفسر في نور هذا السياق اختصاص السورة بقوله : ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون:١٠٨) في سياق إذلال المترفين ، وإهانة المستكبرين أى «ذلوا فيها ، وانزجروا كما تنزجر الكلاب ، إذا زجرت يقال : خسأ الكلب ، وخسأ بنفسه»[1] وهي «استعارة مكنية حيث شبهوا بالكلاب التي تخسأ إبعادا وطردا ، وهوانا ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بلازم من لوازمه ، وهو (خسأ) على سبيل الاستعارة المكنية»[2] .

وترى قوله : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ (المؤمنون:١١٢-١١٤) متقابلا مع ما مضى من استبعادهم البعث ، واستطالتهم الحياة فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (المؤمنون:٣٦) .

وقد ختمت السورة بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٧) لترد بمقابلة السياق بقوله في المطلع ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، قال جار الله

---

(١) الكشاف ٣/٤٤، والآية من سورة النمل (٦٨) .

(٢) تفسير سورة المؤمنون ص١٤٦ الدكتور بسيوني فيود .

في هذا الموضع : « جعل فاتحة السورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وأورد في خاتمتها ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة »[1] .

وفيه ضرب من رد العجز على الصدر كما قال ابن عاشور[2] ، وفيه ما يسميه البلاغيون ببراعة الابتداء وبراعة الانتهاء فيما قال بعض أهل العلم[3] . والحمد لله على ما أعطى ووفق .

* * *

(١) الكشاف ٤٥/٣، والبحر المحيط ٤٢٥/٦ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٣٦/١٨ .

(٣) ينظر : تفسير سورة المؤمنون ص١٦٠، ١٦٢، ١٦٥ الدكتور بسيوني فيود .

المبحث السادس

سورة النور

هذه السورة الكريمة أظهر سور القرآن ـ إلى هذا الموضع ـ ترابطا ، فإن فيها قوانين وإجراءات ـ تتجه بجملتها وتفصيلها لتحقيق أمرين ، تطهير المجتمع من الخبث ، والفحش في شتى مظاهرهما ، وإعادة صياغته على الطيب والطهارة في أعلى صورهما وأشدها كمالا[1] وكل ذلك في إطار ما قرر القرطبي بقوله : «مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر»[2].

ويمكن أن تنتظم آي هذه السورة جميعًا ـ بما فيها من حدود وآداب بالغي الدقة والحذر ـ في مقصود واحد هو (بيان حرمة عرض المسلم) كأن هذه السورة الكريمة هي الحصن الذي يضرب بسوره حول عرض المسلم ، ولخطر هذا الأصل في شرعنا اختصت السورة ببراءة عائشة في عشر آيات من السورة ، بعدما أعمل المرجفون في المدينة ألسنتهم في عرضها ، وكان ما كان وقتها من بوادر التشاحن والتقاطع بين مجتمع المدينة ، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، وكانوا على وشك التفرق والتنادي بالسيوف ، وإيقاظ فتنة العصبية الجاهلية ، وذاك سببه الاعتداء على عرض النقية الطاهرة ابنة الصديق ـ رضي الله عنها .

---

(١) التعريض في القرآن الكريم ص٩٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرطبي ٤٦٩٣/٦ .

وقد ألمح ابن الزبير ـ رحمه الله ـ إلى ترابط سياق آي السورة في بيان مناسبتها لسورة (المؤمنون) فقد لحظ أنها ـ أي السورة ـ جاءت مفصلة لقوله تعالى : في المؤمنون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ (المؤمنون:٥-٧) فقد استدعى هذا الكلام (بيان حكم العادي في ذلك ، ولم يبين فيها ، فأوضحه في سورة النور : فقال تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي . . . ﴾ ثم أتبع ذلك بحكم اللعان والقذف ، وانجر مع ذلك الإخبار بقصة الإفك ، تحذيرا للمؤمنين من زلل الألسنة . . . وأتبع ذلك بعد بوعيد محبي شيوع الفاحشة في المؤمنين . . . ثم بالتحذير من دخول البيوت إلا بعد الاستئذان ثم الأمر بغض الأبصار ، ونهي النساء عن إبداء الزينة إلا لمن سمى الله ـ سبحانه ـ في الآية ، وتكررت هذه المقاصد في هذه السورة إلى ذكر حكم العورات الثلاث ودخول بيوت الأقارب وذوي الأرحام ، وكل هذا مما تبرأ ذمة المؤمن ، بالتزام ما أمر الله فيه من ذلك ، والوقوف عند ما حده ـ تعالى ـ من أن يكون من العادين المذمومين في قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ (المؤمنون:٧) وما تخلل الآي المذكورات ونسق عليها ، مما ليس من الحكم المذكور ، فلاستجرار الآي واستدعائه[1] وبين أن ما ذكره ابن الزبير ينتظم فيما قلناه ، لاسيما أنه ذكر أن ما يوجد مما يوهم ظاهره انصرافه عن الغرض من آي السورة ، جاء استدعاء واستجرارا لآيها المذكورات ، والأمر في كشف علاقة النسب بين هذه الآي المستدعاة ، والآيات الداعية لها ، ووجوه الاستدعاء ، كما سنبين بعضا منها بكلام العلماء .

---

(١) البرهان ص١٣٥، ١٣٦ .

والبقاعي ـ رحمه الله ـ يذكر مقصود السورة ناظرا إلى اسمها ، وحادثة الإفك فيها وخاتمتها ، كاشفا علائق الأنساب بين آي السورة فيقول : «ومقصودها : مدلول اسمها المودع قبلها ، المراد منه أنه تعالى ـ شامل العلم اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة اللازم منه تأكيد الشرف للنبي ﷺ اللازم منه شرف من اختاره ـ سبحانه ـ لصحبته على منازل قربهم منه ، واختصاصهم به ، اللازم منه غاية النزاهة والشرف والطهارة لأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي مات النبي ﷺ وهو عنها راض ، ثم ماتت هي ـ رضي الله عنها ـ صالحة محسنة ، وهذا هو المقصود بالذات ، ولكن إثباته محتاج إلى تلك المقدمات»[1] .

وهو ـ كما ترى ـ يجعل براءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ المقصود الأصلي للسورة وما جاء في السورة بعد من مستتبعات هذا المقصود الأصلي ، ولسورة النور ميزة ظاهرة ـ بعد ما رأيت من ظهور ترابط آيها ومعانيها ـ هذه الميزة هي أن السورة ذاتها حددت مطلعها الذي يمثل آية واحدة ، وانساقت آي السورة بعدها إلى بيان المقصود كأن هذا النظام يحثنا على استكشاف العلاقة بين قوله تعالى : ﴿ **سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النور:١) وبين آي السورة جميعا ، وقد زخر هذا المطلع بعدة بدائع ، أولها : الإشارة إلى آي السورة بهذه التسمية ﴿ **سُورَةٌ** ﴾ ـ على القول بأنها خبر لمبتدأ محذوف تقدير هذه ـ وثانيها : وجه اختصاص هذه السورة بهذا الوصف ﴿ **أَنزَلْنَـٰهَا** ﴾ وكل سور الذكر الحكيم منزلة . وثالثها : وجه اختصاصها بهذه الجملة ، المعطوفة (وفرضناها) وغالب سور القرآن الكريم لا يخلو من أمور مفروضة ، ثم

---

(١) مصاعد النظر ٢/٣١٠ .

وجه اختصاصها بهذه الجملة المعطوفة ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ وقد كان فيما وصفت به السورة أولا كفاية عنها ببادئ النظر . نظم المطلع بهذا التركيب حمل الأئمة على استكشاف علل لهذه الخصائص ، وكانوا في تعليلاتهم لها ينظرون إلى تراكيب السورة ، ونظام آيها ، وجريان معانيها .

ومن علمائنا من يعلل لتسمية القطعة من القرآن الكريم بالسورة بأنها سميت بذلك بتشبيهها بسور البناء ، أي القطعة منه ، أو من سور المدينة ، لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور[1] ، وله موقع لطيف ها هنا ، كأن هذه الكلمة ووقوعها خبرا في صدر هذه السورة تشير إلى أن ما يرد من الآي يحيط بغرضه إحاطة السور بالبناء والذي يغري بتقبل هذا الملمح هو أن الغرض (بيان حرمة عرض المسلم) وأن السورة اختصت بآداب الاستئذان ، وما فيها من الحدود من حد الزنا والقذف ومن اللعان كأن السورة بناء حول عرض المسلم ، وكأن علماءنا في هذا التعليل ينظرون إلى هذا الموضع من القرآن ، ولا يمنع هذا التعليل من التعليلات الأخرى لتسمية القطعة من القرآن سورة ، سواء أكانت تعليلات لغوية ، أم اصطلاحية ، لأنه منصرف إلى التسمية بهذا الوضع (سورة النور) سورة كذا . . . إلخ ولكن الذي حملنا على الاجتهاد في هذا التفسير ناظرين إلى آي السورة ، هو اختصاص السورة لاسيما في مطلعها بهذا التصدير ، فالله أعلم ـ المهم أن المناسبة كائنة .

أما عن هذه الأوصاف فقد ذكر ابن عاشور أن «المقصود من تلك الأوصاف التنويه بهذه السورة ليقبل المسلمون بشراشرهم على تلقى

---

(١) يراجع : المفردات للراغب (سور) والمصباح (سور) واللسان (سور) والبرهان للزركشي ١/٢٦٣، ٢٦٤ .

ما فيها»[1] وهو ناظر إلى معاني السورة في تحديد تلاؤم ما قرره المفسرون في معنى ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ فقال : «ومعنى ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ عند المفسرين : أوحينا العمل بما فيها ، وإنما يليق هذا التفسير بالنظر إلى معظم هذه السورة لا إلى جميعها فإن منها مالا يتعلق به عمل كقوله ﴿ ٱللَّهُ نُورُ . . . ﴾»[2].

ورحم الله النيسابوري من قبل فقد فرق بين هذين الوضعين ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ناظرا في آي السورة مشيرا إلى أن المطلع يشير إلى ما في السورة من الأحكام ، ومن دلائل التوحيد ، فقال : «ولابد من تقدير مضاف لأن السورة قد دخلت في الوجود ، فلا معنى لفرضها ، فالمراد فرضنا أحكامها التي فيها ، ومن شدد فللمبالغة أو للتكثير . . . . وأما الآيات البينات ، فإنها دلائل التوحيد التي يذكرها الله تعالى بعد الأحكام والحدود ، ويؤيده قوله : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾»[3] ثم ذكر توجيها آخر لتعليل الجمع بين هذين الوصفين ـ هو فيما أرى مرجوح ـ هذا التوجيه أملاه اشتمال السورة على أحكام وحدود ودلائل وحدانية ـ قال النيسابوري «وقال أبو مسلم : هي الحدود والأحكام أيضا ، ولا بعد في تسميتها بآيات ، وقال القاضي : أراد بها الأشياء المباحة المذكورة في السورة بينها الله لأجل التذكر»[4] وقول أبي مسلم من قول الزمخشري في بيان معنى فرضناها ومعنى آيات بينات فليراجع في موضعه من الكشاف ٤٦/٣ ، ٦٧ .

وقد ذكر الشيخ الصاوي إجمالا لكل ذلك ناظرا إلى آي السورة فقال «قد ذكر في أول هذه السورة أنواع من الأحكام والحدود ، وفي آخرها

(١، ٢) التحرير والتنوير ١٤٢/١٨ .

(٣، ٤) غرائب القرآن للنيسابوري ٣٧/١٨ .

دلائل التوحيد ، فقوله : ﴿ وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ إشارة إلى الأحكام ، وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ إشارة إلى الأدلة »[1] .

وقد عللوا لتكرار الإنزال بأنه لكمال الاعتناء بما في السورة والتنويه به ، وتوكيد الأخذ بكل ما فيها على درجة سواء ، آدابا وأخلاقا وحدودا وعقوبات[2] ومرجع ذلك إلى أن هذه الآداب والأخلاق الواردة في السورة يسوق تركها وإهمال العمل بها إلى الحدود والعقوبات الواردة في السورة ، وهذا يرجح ما لمحناه في وجه التصدير بـ (سورة) فكأن السورة سورت عرض المسلم ، وبالغت في حرمته بطريق أبلغ هو النهي عن كل ما قد يفتح بابا للاعتداء عليه .

ولا ريب أن الفقهاء[3] ـ فيما استظهره أحد أهل العلم من المحدثين ـ الذين رجحوا أن الاستثناء في قوله سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ . . . ﴾ (النور:٤، ٥) .

راجع إلى قوله : ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾ وقوله : ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ومذهب أبي حنيفة يستظهر رجوعه إلى الأخيرة وحدها ، وذلك بعد اتفاقهم على عدم رجوعه إلى الأولى ﴿ فَٱجْلِدُوهُمْ ﴾ لا ريب أن أعينهم كانت على سياق السورة التي تشتمل على تشريعات وآداب وحدود

---

(١) الصاوي على الجلالين ١٢٧/٣ .

(٢) يراجع : الصاوي ٦٢٧/٣، في ظلال القرآن ٢٤٨٧/٤، والتحرير والتنوير ١٤٣/١٨ .

(٣) هو مذهب الشافعي ومالك وأحمد يراجع دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ص٢٤٣ دكتور محمود توفيق محمد سعد ، مكتبة وهبة .

بالغة الدقة والحذر في حرمة عرض المسلم ، وقد استظهر الدكتور محمود توفيق رأي هؤلاء الفقهاء بتراكيب الآيات التي وقع الاستثناء في سياقها ، وبتراكيب الجملة محل الخلاف ﴿ وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ ﴾ فقد « جاء الحكم في صورة النهي (لا تقبلوا) وهي أدل على قوة الطلب وعدم الترخيص في طاعته ، وتنفيذه من الأمر (ردوا) لأن النهي لا يحتاج إلى قوة (إيجابية) فاعلة بل إلى قوة (سلبية) ساكنة . .

وجاءت العبارة بتقديم الضمير ، وجره باللام وتعليقه بمحذوف (لهم شهادة) دون قولنا : (شهادتهم) لأن ما عليه النظم يؤذن بأن قبول شهادة الشاهد هو في الوقت نفسه شهادة له بالعدالة ، التي هي من أعالي ما يحرص المسلم على الاتصاف به ، فكأن الجزاء من جنس العمل »[1] وهو استنباط متناسب مع سياق السورة جملة وتفصيلا لأن كل آدابها وحدودها ودلائلها ، جاءت في حدود ما زخر به المطلع من البدائع المثيرة إلى إيراد هذه الأمور في إطار بالغ من الدقة والحذر كما تومئ بذلك تراكيب المطلع وتراكيب آي السورة جميعا .

والذكر الحكيم بما وضع لنا من دقائق فروق التراكيب يصور لنا امتداد صدى المطلع وشعاع نوره ، نعم وصفت الآيات بأنها بينات في كثير من سور الذكر الحكيم[2] ووصفت بأنها مبينات في سورة واحدة[3] هي سورة الطلاق ، لكن لم يجتمع لها هذان الوصفان في سورة واحدة كما وقع ها هنا ، والسياق نفسه يحثنا على استكشاف هذا النور .

---

(١) يراجع دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ص٢٥١، ٢٥٢ .

(٢) البقرة ٩٩، ١٨٥، ويونس ١٥، والحج ١٦-٧٢، والعنكبوت ٤٩، وسبأ ٤٣، والجاثية ٢٥، والأحقاف ٧، والحديد ٩ .

(٣) الطلاق ١١ .

يضع القرآن الكريم معلما للمطلع في حادثة الإفك ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:١٨) .

تذكر قول البقاعي في مقصود السورة في أن المراد من اسم السورة لأنه تعالى شامل العلم اللازم منه إثبات الأمور على غاية الحكمة ، والملحوظ أن هذا التذييل جاء بعد بيان حد الزنا والقذف واللعان ، وفي براءة السيدة عائشة ، قد وقع بعد قوله : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾ (النور:١٧) كأن ما مضى من الحدود شرع لأجل عائشة والمؤمنات من أمثالها .

ثم يضع القرآن بعد ذلك معلما ظاهر الضوء فيما اختصت به السورة من قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (النور:٣٤) مع تدبر الفرق بين ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ في المطلع و﴿ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ ها هنا ، وما يصوره الفرق بين الصيغتين من وصف الآيات والحدود بالوضوح والظهور ، ووصفها بأنها كاشفة موضحة ، وكأن أولهما قبل إيرادها ، وثانيهما بعد إيرادها .

ثم يأتي بعد ذلك قوله : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (النور:٤٦) وتذييلات أخرى تذكرنا بالمطلع في قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٥٨) وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:٥٩) وقوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (النور:٦١) وما ختمت به السورة من قوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٤) لبيان أنه ـ سبحانه ـ شامل العلم كما قال برهان الدين ـ رحمه الله واستقراء كلام المفسرين عند الآيات الثلاثة (١، ٣٤، ٤٦) يدل على لحظهم لهذا السياق .

قال أبو جعفر في الآية (١) : «يقول تعالى ذكره ـ وأنزلنا في هذه السورة علامات ودلالات على الحق بينات ، يعني واضحات لمن تأملها وفكر فيها بعقل ، أنها من عند الله ، فإنها الحق المبين وإنها تهدي إلى الصراط المستقيم»[١] وكأنه يومئ إلى معنى الآية (٤٦).

ثم يقول عند الآية (٣٤) مراعيا الفرق بين الصيغتين «بينات ومبينات ـ ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس دلالات وعلامات مبينات يقول : مفصلات الحق من الباطل وموضحات ذلك» ثم بين أن قراءتي الكسر والفتح في (مبينات) متقاربتا المعنى قال : «وذلك أن الله إذا فصلها ، وبينها صارت مبينة بنفسها الحق لمن التمسه من قبلها ، فبين الله ذلك فيها»[٢] .

وعبارته عند الآية (٤٦) تتقارب جدا مع عبارته عند الآية (١) يقول : «لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[٣] فالذكر الحكيم يدل على العلاقات بين مطالع السور وآيها بهذه المعالم التي تنادي على هذه العلاقات ، وذلك كائن في كل سورة وإنما يدق بحسب أهل البصر .

والنيسابوري ـ رحمه الله ـ يلفتنا إلى ما يصوره الذكر الحكيم من رحلة السياق عند الآية (٣٤) في قوله سبحانه : ﴿ **وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ وهذه الكلمة تلفتنا إلى قوله سبحانه في حادثة الإفك ﴿ **يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ** ﴾ (النور:١٧) كما تلفتنا إلى أنها وزان قوله في المطلع ﴿ **لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النور:١) يقول «كونه (مثلا من الذين خلوا) أى

---

(١) جامع البيان ٥٢/١٨ .

(٢) المرجع نفسه ١٠٤/١٨ .

(٣) المرجع نفسه ١١٩/١٨ .

قصة عجيبة من قصصهم ، فإن العجب في قصة عائشة ليس بأقل من العجب في قصة يوسف ومريم وما اتهما به»[1].

وله ملحظ لطيف جدا عند الآية (٤٦) فيما علل من الفرق بين عطف الأولى (٣٤) (ولقد) وافتقاد العاطف في الثانية (لقد) يقول : «وحين فرغ من إثبات هذه الدلائل أراد أن يبين أحوال المكلفين وأن فيهم منافقين ، فقدم لذلك مقدمة ، وهى قوله : ﴿ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ﴾ ، وإنما فقد العاطف هاهنا بخلاف قوله : ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ﴾ لأن المقصود هناك هو ماسبق من التكاليف والمواعظ ، والغرض هاهنا ، توطئة لما يجىء عقيبه من حال أهل النفاق»[2] وهو يكشف لنا بدقة عن ترابط ما جر إليه سياق الآيات الماضية وما ذلك من سياق السورة ببعيد ، أليس الذي تولى كبر الإفك على عائشة هو رأس المنافقين عبد الله بن أبي؟ أليس هو الذي يجبر الفتيات على البغاء طمعا في التكسب من بغائهن ، كما يوضحه سبب النزول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا ﴾ (٣٣) بل إن سياق هذه الآيات هو الذي حمل الدكتور إبراهيم الخولي على القطع بأن الآية (٣٣) تعريض بعبد الله بن أبي وأمثاله ، اعتمادا على ما استظهره من سياقات القرآن من استحالة أن يراد بالخطاب المؤمنون ، وما ورد في حادثة الإفك في صدر السورة[3] كأن السورة نزلت لبيان حرمة عرض عائشة وأمثالها من المؤمنات ، كما ألمع البقاعي ، إلى أن ذلك هو المقصود بالذات .

---

(١) غرائب القرآن ٨٨/١٨ .

(٢) المرجع نفسه ١٠٥/١٨ .

(٣) يراجع : التعريض في القرآن الكريم مبحث دور المقام في التعريض الصفحات ص٨٨، ٩٣، ٩٧ وغيرها .

قال العلامة ابن عاشور عند الآية (٣٤) «وصفت هذه الآيات المنزلة بثلاث صفات كما وصف السورة في طالعتها بثلاث صفات ، والمقصد من الأوصاف في الموضعين هو الامتنان ، فكان هذا يشبه رد العجز على الصدر» ثم يقول : بعد بيان هذه العلاقة مفرقا بين عدم العطف هنا ووجوده في الآية (٤٦) «وإنما عدل عن الفصل إلى العطف لأن هذا ختام التشريعات والأحكام التي نزلت السورة لأسبابها ، وقد ذيلت بمثل هذا التذييل مرتين من قبل هذا بقوله تعالى في ابتداء السورة ﴿ وَأَنزَلْنَا . . . ﴾ ثم قوله : ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ . . . ﴾ فكان كل واحد من هذه التذييلات زائدا على الذي قبله . . . . وقوله : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يقابل قوله في أولها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾»[1] والرجل ـ كما ساقته دقائق فروق تراكيب هذه الآي ـ يصور لنا تشارب تركيب المطلع من نور السياق ثم وضعه مرة بعد مرة بدقائق تصور هذا التشارب ، وهذا هو الفرق بين تركيب آية المطلع ، والآيات التي تقاربها في السورة .

ألا ترى أن هذه الروابط التي ذكرناها ـ مما اختصت به السورة من أوصاف الآيات وتشاربها من سياقها ـ ألا ترى أن ذلك يفسر لنا اختصاص السورة بقوله : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ (النور:٣٥) وقد وقعت بعد الآية (٣٤) وأمرها عند السلف ما علمت ، وعلاقتها بالمطلع ما عرفت ، وهذه الآيات فيما يبدو من عاجل البصر أخفى صلة بهذا السياق من آيات السورة كلها ، مع أن عناصر اللغة بين هذه الآيات وبين المطلع ظاهرة (آيات بينات بيانها كمثل نور مشكاة فيها مصباح . . . .) كأنى بآيات السورة تقول هذا .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٨/١٨، ٢٢٩ .

وأهل العلم حرروا هذه العلاقة فالمراد بـ ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ﴾ عند أبي جعفر ـ رحمه الله ـ هادي من في السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون «ثم قال : وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك ، لأنه عقيب قوله : ولقد أنزلنا . . فتأويل الكلام ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات مبينات الحق من الباطل ، ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ، فهديناكم به ، لأني هادي أهل السموات وأهل الأرض»[1] ويراجع ما ذكره عند الآية (١) فإن معنى مطلع السورة يرمي معناه . . . فيما ذكره ـ إلى علاقة هذا التشبية وما استتبعه من التشبيهين الآخرين بالمطلع .

بل إن ابن عاشور[2] لقوة هذه العلاقة ـ ذكر أن قوله ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ﴾ معترض بين الآية الماضية (٣٤) وبين قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ وهذا الاعتراض له دلالته ، فهو ينص على وجه وصف آيات السورة والحدود المذكورة فيها بأنها نور ، لأنها من الله وهو سبحانه ﴿ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالمثل بيان للآية (٣٤) كما قال ابن عاشور ، والعلاقة بين هذه الآية والمطلع على ما عرفت فسبحان الله ، فكأن التشبيه وما استتبع من نور المطلع والسياق بعده وليس اختلاف العلماء في المراد بالضمير في قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ ليس ذلك صارفا عن هذه العلاقة فاختلافهم يؤيد ما ذكرناه بكلام الأئمة فهم يذكرون أن المراد بالضمير القرآن وهو نظر إلى سياق القرآن كله ، وهو كله نور كما جاء في سياقات أخرى ، بل إن التوراة والإنجيل نور كما جاء في سياق[3] آخر ، ولم تتبع أي من هذه

---

(١) جامع البيان ١٠٥/١٨ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ص٢٣١ .

(٣) آل عمران ١٨٤، النساء ٧٤، المائدة ١٥، ٤٤، ٤٦، فاطر ٢٥، الأنعام ٩١.

السياقات بمثل هذا التشبيه ، ألا ترى أن المطلع ونظائره في السورة هو العلة في اختصاص السورة بهذا التشبيه وما استتبع .

وقالوا: المراد به (بالضمير) محمد ﷺ وهم في ذلك ينظرون إلى قوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب:٤٦) أو المراد بالضمير قلب المؤمن أو مثل ضربه الله لطاعته[١] ولا يمنع أن يراد كل ذلك ، فهذه الحدود والآيات نور ، لأنها من نور السموات والأرض ، وبلغ هذا النور من سمعه فوعاه فعمل به فكان نورا هدى به من بلغه وعمل به فكان نورا لنفسه ولغيره من المؤمنين .

وكما اختصت السورة بأوصاف الآيات التي ذكرناها بهذه الانتقالات في الصياغة اختصت أيضا بهذا التشبيه ، وبذكر النور فيها ست مرات[٢] والعلاقة بين النور والبيان جلية وظاهرة الأول سبب الثاني والثاني أثر الأول .

وقد تناول الدكتور محمد أبو موسى هذه التشبيهات الثلاثة (٣٥،٣٩،٤٠) بالدراسة وقد بين فيها خطر البحث عن علائق الأنساب بين تشبيهات السورة القرآنية وآياتها والكشف عن النسق الذي وجدت فيه تشبيهات السورة ، ووحدة موضوع السورة ظاهرة عنده ظهورا لا يلتبس ، وقد بين أن التشبيه الأول (٣٥) مثل للعامل بحدود ، وأن الثاني (٣٩) جاء مقابلا له ، فقد بنيا على التقابل يقول : «فصاحب الأعمال في سورة النور حي طليق يركض وراء السراب ، وهذا متلاءم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك في جانب حيوي من جوانب الحياة ، فليس هنا موت ولا عذاب

(١) جامع البيان ١٠٦/١٨ .
(٢) النور ٣٥، ٤٠ .

في جهنم ، وإنما هنا حياة فسيحة متسعة[1] ، وفريق من الناس يستضيء بنور الشريعة ، التي هي كمشكاة فيها مصباح . . وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة ، فضل في أوهام الفكر وسراديب الضلال ولذلك كان ـ وجود صاحب الأعمال في المثل حيا يسعى سعيه ويركض جهده أمرا طبيعيا . . . . .».

وعنده أن التشبيه الثاني (٣٩) تشبيه لحياة التاركين حدود الشريعة وضوابطها وأن الثالث (٤٠) جاء ترقيا وانتقالا من البليغ إلى الأبلغ[2] وينبغي أن ينظر بهذا التشبيه إلى المطلع كما ذكرنا .

والذي أراه أن التشبيه الثاني (٣٩) تشبيه لضياع أعمال الكافرين في الآخرة لاسيما وأن عناصره ـ (السراب ـ بقيعة ـ الظمآن . . .) تتلاءم مع ما اختصت به السورة من وصف يوم القيامة من قبل التشبيه بقوله : ﴿ تَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ ﴾ (٣٧) ودلالته ما ترى من التذكر وتقليب الذاكرة ، وتعلقها بوهم ما يظن من خيرات الكافرين في الدنيا من صلة الرحم وغير ذلك ، والتشبيه الثالث لم يأت ترقيا (٤٠) وإنما جاء واصفا حياة المنقطعين عن شريعة الله وحدوده في الدنيا ، ولغة بناء التشبيه الثالث تنادي على هذا التقابل ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ . . . ﴾ ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ ﴾ ووضع القرآن معلما مباشرا على قوة هذه العلاقة ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن

---

(١) لاحظ أنه يقارن بين هذا التشبيه وبين تشبيه سورة إبراهيم ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (١٨) .

(٢) يراجع (أمثال سورة النور) بحث بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م للأستاذ الدكتور محمد أبو موسى .

﴿ نُورٍ ﴾ (٤٠) وهو ينادي على قوله : ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (٣٥) لأن الأول يسير على هدى آيات بينات ، والثاني يخبط في ظلمات بعضها فوق بعض وهذا التنويع متناسق مع هذا السياق ، ولم يتنوع التشبيه الأول للعاملين بالحدود ولأن من كانت الشريعة نوره في الدنيا كانت حياته نورا على نور ، وكذلك قبره ، وكذلك شأنه يوم الحساب .

وكما يتقابل هذان التشبيهان مع التشبيه الأول ، يتقابلان مع المطلع «الذي وقع التشبيه الأول في سياقه»[1] ولاتجد هذا التقابل ، ولا هذه العناصر إذا ما قارنت هذا التشبيه بنظائره ولك نور المطلع الذي ينبغي أن يصطحب معناه عند كل آية .

ونتابع بعض ما ذكره الأئمة من الروابط كشف ابن عاشور عن موقع قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ (٥٨-٦٠) فيقول «استئناف انتقالى إلى غرض من أحكام المخالطة والمعاشرة ، وهو عود إلى الغرض الذي ابتدئت به السورة ، وقطع عند قوله : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾»[2] وأنت تعلم أن الآية (٣٤) أخت المطلع في تركيبها هي التي استتبعت هذا البيان عن حال الناس تجاه هذه الحدود التي أنزلت في الدنيا وفي الآخرة .

---

(١) راجع بتوسع ما وفقنا إليه ـ بفضل منه تعالى ـ في معالجتنا الكشف عن أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ص٢٥٧ وما بعدها ، الدكتور إبراهيم الهدهد ، مكتبة وهبة ١٤٤٠هـ . وبحث شيخنا الدكتور أبو موسى ، هو الذي فتق لنا هذا الباب .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٢/١٨ .

ويكشف النيسابوري المناسبة في قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ بقوله : « ثم ختم السورة بسائر الصورة التي يعتبر فيها الإذن »[1] ، وهو يشير إلى رابطة ما يظن أنه ليس من مقصود السورة .

ويقول القرطبي عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٦٢) « إنما في هذه الآية للحصر . المعنى : لا يتم ولا يكمل إيمان من آمن بالله ورسوله إلا بأن يكون من الرسول سامعا غير معنت في أن يكون الرسول يريد إكمال أمر فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك وبين تعالى ـ في أول السورة أنه أنزل آيات بينات ، وإنما النزول على محمد ﷺ فختم السورة بتأكيد الأمر في متابعته عليه السلام ليعلم أن أوامره كأوامر القرآن »[2] ويؤيده ما مضى في السورة من تكرار الأمر بالطاعة مع الرسول في قوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (٥٤) وذلك فيما ذكروا يقع في سياق يعتنى فيه بإظهار طاعة الرسول ، لاسيما سياق الحدود التي بينتها السنة كحد الرجم مثلا .

ويقول ابن عاشور عند خاتمة السورة ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ . . . ﴾ وهو « تذييل لما تقدم في هذه السورة كلها ، وافتتاحه بحرف التنبيه ، إيذان بانتهاء الكلام ، وتنبيه للناس ليعوا ما يرد بعد حرف التنبيه »[3] وقد ختمت السورة بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي في فرض حدود وأحكام السورة وبيانها هذا البيان ، شأنه في كل شيء ، وقد حاولنا بيان بعض الروابط . وبالدراسة الدقيقة المتأنية للسورة الكريمة يتكشف لها عطاء القرآن الذي لا يخلق على كثرة الرد .

* * *

(١) غرائب القرآن ١١٥/١٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤٨٥٨/٦، والبحر المحيط ٤٧٥/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٣١١/١٨ .